قصة واقعية

بعنوان :

البحث عن الحقيقة في الزمن الضائع

للمؤلف : شاهد عيان

مهما كان الرأي حول أحداث هذه القصة ... ومهما كان الحكم فيما تصورة لنا من عوالم مختلفة بكل ألوانها ... إلى أنها تختفي بين طياتها أفكارا لقضايا العصر ومشاكله، ومعضلاته ... فواقعيتها الأليمة هي القاعدة التي ننطلق منها أول خيوط الحقيقة الغائبة عنا في هذا الزمن الضائع ...

يقول جون بطل القصة :

الدنيا رحلة ... تمشيها خطوة تلو خطوة ... تجرب فتتعلم ... ويجربك فتقدم ... ولكن ... الشيطان عدوك اللدود ... يتغص عليك رحلة الاخلود ... إنه يريك مشاكلك وهمومك وغمومك بين يديك ... ويجعل الدنيا مظلمة سوداء كالحة نصب عينيك ..

فهو عدو ... يعمل ليدمر ... ويزين ليخرب ... ويسعى ليفرق ...

فإلى أولائك الذين ينكرون وجود مملكة الشيطان ... وعواملها ....

إلى الذين غلبتهم طينتهم ... واستولت عليهم مشاعر البغض والكراهية ...

إلى الذين إستهوتهم الشهوات ... وقادهم الشيطان إلى الظلمات ... وغرت بهم رياح الحقد والغدر، وتاهوا في لحظة عذاب سقر ، وأن الموت مصير كل البشر ... نضع بين أيديهم هذا الكتاب عسى الله أن يجنبهم بالرحمة والثواب حتى يدركوا حقيقة ما وراء الأبواب ....

كاتب القصة : شاهد عيان

البحث عن الحقيقة
في
الزمن الضائع

* * * *

(قصـــــة واقعيـــــة)

مقدمـــة :

لم يكن الأمر سهلا لينا .. فقد احتجت إلى الكثير من الصبر والمعاودة وشيء من الإصرار الذي كادت أن تذهب به خيبة أمل مريرة ... مبعثها أني لم أجد في هذا الزمن الذي أعيشه ما كنت أبحث عنه ..

فلا مجال هنا للبهرجة اللفظية , ولامكان هنا للصيغ التعبيرية التي تغذو للقارئ الذي لايهمه من النص الذي أمامه سوى الأساليب البلاغية ..

إن مشكلتي الحقيقية أو مشكلتي الشخصية كما أسميها هي البحث عن الحقيقة في الزمن الحقيقي والعلاقة مع الآخرين ...

فأين هي تلك الحقيقة ؟؟؟

ذلك هو السؤال الكبير الذي أطرحه ويطالعني بحجم كبير كلما حاولت رفع الستار عن الزمن الذي أعيشه ...

انه ضياع الإنسان في عجزه عن توصيل ما يريد إلى الآخرين ... وانتهاءه إلى الوحدة واليأس ..

انه عنوان لأصول فكرية متصلة بنسبية **(الحقيقة)** وذاتيتها...

انه سؤال استمده من تجارب ومعاناة خضتها طوال ثلاثين عاما تمثلت بشكل عام في تعاملاتي مع الآخرين وبشكل خاص خلال علاقتي بزوجتي التي أدخلتني إلى عالم يتضارب فيه العقل مع المنطق ..عالم التقيت فيه مع الشيطان وعوالمه السوداء التي لا ينفد إلى ظلامها القاتم أي شعاع من نور ...

فحين ينتقل المرء بين هذه العوالم يدرك في آخر المطاف أن الحياة مجرد أكذوبة ضخمة بلا رباط وبلا مبرر .. فيتعطل شعوره .. ويعيش بلا حياة ويفكر بلا فكر وتتجاذبه قوى الخير وقوى الشر ويصبح إنسانا عابرا بلا بيت وعصفورا طائرا بلا عش ...

لقد أدركت أن اللغة عاجزة ومتقطعة ولم تعد أداة للتوصيل ....فالأبواب موصدة بين الذوات وكل منا يدور في عالم من الكلمات الفارغة الخاوية .... فمن

العسير ان اوصل للاخرين حقيقة نفسي واعرفهم بما يجري في ذاتي وان هناك فراغا في علاقاتي بهم تملأه شخصية ثالثة ليست شخصيتي ..ولا صلة لها بحقيقتي .. وإنما هي شخصية إنسان غريب خلقه فراغ الكلمات وذلك يؤدي في النهاية إلى أن تكون أحكام الناس عني أحكاما خارجية .. فهم يحيلونني إلى موضوع يلغون به ذاتي.. فلا يعرفون ولا يرون سوى جسدي وعيوني وحركاتي وقامتي .. وهم يحكمون علي من خلال ما تمثله هذه الملامح والحركات من انطباع لديهم , دون أن يعرفوا شيئا من عواطفي وما يجري في ذاتي وكياني الداخلي .. ويحكمون على انفعالاتي كما تنعكس على المظاهر الخارجية لجسدي

إن الآخرين لا يحكمون علينا ولا يصنفونا إلا من مظهرنا الخارجي الذي لايمكن أن يعبِر عن العالم الداخلي الذي نحمله ... ذلك المظهر الخارجي الذي قد ننفق الحياة كلها دون إن نلتفت إليه أو نفكر فيه .... حتى يأتي في نهاية المطاف فيعرض لنا ما يصدمنا ويردنا إلى الحقيقة القاسية .... وهي أن الناس لا يسلكون غير هذا الطريق المريح ...

إن الآخرين اوالناس هم من يصنعون لنا شخصية وهمية لا تمت لنا بأية صلة على الإطلاق ... فيصنعون لنا قالبا ويجعلون منا تمثالا ويضعوننا في سجن الفكرة المحددة التابثة التي كونها المجتمع عنا ونرى أن فكرة الناس عنا لاتطابق الفكرة التي نحملها في أنفسنا ..

ونبقى في سجن الآخرين سنوات وسنوات ...ويضيع الزمن ....فيطرح السؤال نفسه من جديد :

أين هي الحقيقة ؟؟؟

ومازلت اطرح هذا السؤال وأطرحه على نفسي حتى انتهى بي إلى سلسلة من الأوهام والمفاجآت والتلاشي والضياع ....

عن لسان البطل ...جون بول ديمتري.

كاتب الرواية :م. ياسين محمد .

(1)

*طفولـــة صامتـــة ..

في حياة كل إنسان أحداث توجهه وتلعب الدور الأكبر في تكييفه , وإضافة صفة معينة عليه ولا نكاد نقف أمام سيرة أي إنسان دون أن يطالعنا حدث صغير أو كبير كان له أوقع الأثر في نفسه وفي تكوين شخصيته وربما كان الحدث الصغير البسيط مبعثا لفكرة يعتنقها هذا الإنسان وتظل لصيقة به وبوجدانه حتى لتصبح عند البعض نظرة عامة إلى الحياة وفلسفة تفسر له أحداثها وتبرر له وجوده .

هذه الأحداث الصغيرة الخطيرة نكتشفها إما في العلاقات التي تقوم بين المرء وأسرته الصغيرة أو بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه أو البيئة التي يتعامل معها على أن اغلبها مما ينشأ عادة نتيجة للعلاقات العائلية... فكم من عقدة تحكمت في وجدان المرء وأطلت علينا كآبة مريرة أو تمرد عنيف أو فلسفة تنكر التواصل ... وكان مبعث هذه النظرات غالبا علاقة لا تقوم على أساس سليم بين هذا المرء وبين أسرته أو زوجته أو البيئة المحيطة به .

وهنا نطل على حياة شخص وضعنا أمام حقيقة لا يمكن أن نغفل عنها وهي غربة الإنسان ووحدته وخيبته المحتومة في هذا المجتمع الذي تفكك نسيجه الاجتماعي إنها حقيقة الإخفاق المرير في التفاهم مع العالم ونقل حقيقة الذات إليه , لقد واجه بطلنا هذا العالم في وحدة قاتلة ووقف بقامة بارزة ليتحدى بعدا ثالثا في حياته أو زمنا ثالثا أو كما أسماه ... **الزمن الضائع** .

ويبدو إذا ما تأملنا سيرته أن الرجل في شبابه لم يكن متهتكا حتى يؤخذ بسحر التحرر الفاجر .. ولكنه كان شابا متزنا رصينا بدأت فكرته عن عبث الحياة وتفاهة مظاهرها تضرب بجذورها في أعماق نفسه التي كانت تنزع به في وقت مبكر إلى التأمل الفلسفي وتثير في نفسه شتى التساؤلات عن جدوى الحياة كما يريد أن يعيشها هو لا كما يراد له .

وقد كان أيضا للأحداث التي جرت مع زوجته أثر كبير لا يخطئه أي باحث في هذه الفلسفة الفردية التي تؤمن بانقطاع الصلات بين الذوات وعدم التواصل مع

الاخرين ... وتصور الفرد الذي يعيش في دائرة مغلقة لاينفذ إليه احد .... ولا يطل هو منها على أحد.

فحين سئل عن طفولته أجاب مبتسما : **((لاتسألني عن طفولتي ... فما يمكنني قوله هو أن طفولتي صامتة.. فأنا لست أذكر أنني كنت يوما طفلا...لدي الآن طفلة صغيرة بريئة فرض عليها المجتمع أن لا تعيش طفولتها... نحن لم نكن أطفالا حقيقيين يوما ..))**

وتصر لنا هذه العبارة المفعمة بالحزن والأسى ذلك الحرمان الذي كان يحسه وجدانه لقد كانت الطعنات تتوالى نحو إنسانيته يسددها له المجتمع الذي يعيشه ... فقد تعذب في صباه بسبب هذا المسلك وأنفق أيامه في العمل المضني في متجر كان يملكه .. وكان المتجر يستقبل يوميا أنماطا مختلفة ونماذج متنوعة ساعده على الفهم العميق لأوضاع الناس والتعرف إلى مشاكلهم وإدراك أحوالهم العامة في الحياة كما زودته هذه التجربة بفهم عميق للألم البشري ...

لقد كان جون أتناء طفولته ومراهقته قليل الإفصاح عن نفسه بل لقد كان صموتا ... لا عن شك أو حذر ولا عن خجل أو وجل ولا عن تهجم في الطبع والمزاج .. أبدا .. بل بسبب شيء خاص في نفسه .. بسبب اهتمام شخصي تماما لا شأن له بالآخرين ومع ذلك فقد كان يحب البشر .. ويسعى لإسعادهم ولو على حساب نفسه .. وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها في غمرة الثقة بالناس .. كان في نفسه شيء لا يدري ماهو .. شيء يشعر الآخرين شعورا واضحا بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الإنسان وأنه يأبى أن يتهم ويدين وبأنه لا يرضى أن يلقي اللوم على الملأ .. حتى لقد كان يبدو انه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ولكن بمرارة حزينة في كثير من الأحيان .. ووصل من ذلك إلى أنه لا يدهشه شيء وأن لا يخيفه شيء وذلك منذ نضارة صباه...

وكان جميع الناس يحبون جون ديمتري , لأنه ينصت لأحزانهم و يحل مشاكلهم ويأخذون بمشورته.. لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة في نفوس كل من عرفوه ...فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم دون أن يتحايل هو لذلك ..

كان جون طوال حياته المدرسية أثير رفاقه بلا منازع فقد كان ملحوظا بنبوغه ومعروفا بعبقريته .. فالتواضع سيد موقفه فلا يتحمس إلا نادرا .. ولا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه .. ولعل هذا هو السبب في انه كان لا يخشى احد ...

في شبابه آمن جون كما يؤمن كل الشباب أن السعادة لا تكتمل إلا بالمال فعمل بجد وسخر قواه وأفكاره حتى كوّن لنفسه ثروة ومكانة عالية بين أقرانه كما حرم على نفسه متعة السمر والليالي الحمراء والعيش المترف ومغامرات الشباب . وساعده في ذلك التزامه الديني ونشأته الصحيحة وعجزت بهرج الدنيا عن استدراجه لها ,فكان يصادق الكتب و يملأ فراغه بالمطالعة وكتابة الشعر وكانت حصيلة دراسته أنه انتسب إلى أكاديمية عسكرية تخرج منها برتبة ضابط زادته مرتبة وشرف عاليين ..

بعد تلك النجاحات اصطدم جون بأول متاهات الزمن فقد وجد نفسه نموذجا يتحمل كل شيء ويصبر على كل أذى أو مكروه في سبيل احترام رغبة الغير وإسعادهم ,مما فتح باب الطمع والجشع على مصراعيه لشركائه في التجارة و بعض أصدقاءه أن ينقلبوا عليه واحدا تلو الآخر ويستغلوا طيبته وكرمه الزائد بلا حدود في سبيل إرضاء رغباتهم المادية ..

لقد دبت الحيرة في نفسية جون وأبرزها الحيرة أمام النفس وعدم القدرة على تحديد ما يريد من الحياة وما يريد الزمن أن يصنع به مع عجز واضح في تشخيص الخيبة التي تدفع به إلى حافة السقوط والانهيار ...

ربما كان ذلك لأنه حاول أن يقوم بأعباء اكبر منه .. فقد كتب عن نفسه قائلا :

((يبدو أنني أجهدت نفسي كثيرا ... وحملتها بآراء مختلفة وبأنواع من الخطط والمشاريع العلمية والتجارية وكنت احمل هذه الأفكار بطريقة تختلف عن الناس لقد حملت أثقالا فوق ظهري ولكن ظهري خذلني .. لقد كنت بطلا في العشرين من عمري فقد كانت لي القدرة في التغلب على كل شيء ... منذ عامين فقط كنت صحيحا معافى وكانت لي روح نشطة قوية وكان الحماس يدفعني إلى أن أصارع المستحيل واهزمه كنت ابكي عندما أشاهد الحزن على الآخرين واشعر بالمهانة

حين اقابل ضعيفا او مسكينا كنت اعرف متعة السمر والشعر في الليالي الدافئة ..كان لي إيمانا قويا حينذاك.. أن انظر إلى المستقبل وكأنني انظر إلى عيني أمي...أما الآن لم أستطيع أن افهم أو يفهم أحد الأزمة التي تمزقني وتشعرني بالاختناق.. في الماضي كنت أفكر كثيرا واعمل كثيرا ولا اشعر بالإعياء أما الآن فلست اعمل شيء أو أفكر في شيء ومع ذلك اشعر بالتعب يسري في عقلي وجسمي...))

وكعادته لم يلقي جون اللوم على الناس أو على نفسه بل كان لومه على هذه البيئة أو هذا الزمن الذي يصدمه ويقتل الحماسة في نفسه ويخمد رغبته في العمل ويزيد إحساسه بالبؤس والتفاهة ويحسسه أن أهدافه النبيلة وغايته السامية وإيمانه بالتقدم ..كلها أشياء لا تلبث أن تتداعى في نفسه فلا يبقى منها شيء ...

حاول جون الهروب من هذه المحنة بالسفر والهجرة إلى مجتمع يتماشى مع نظرياته ويتفهمه .. كان جل همه أن يجد في هذا العالم من يفهمه ويتفاهم معه لكن عقبات شتى حالت بينه وبين السفر أبرزها مرض والدته التي كان يحبها كثيرا فلبث بجانبها وسخر لها إمكانياته المعنوية حتى تماثلت للشفاء ...

لقد عقد جون العزم على الخروج من هذه المحنة بالكفاح المستميت في سبيل تحصيله العلمي وتأكيد عبقريته وتنميتها وكان كفاحه في أكثر من جهة .. كان عليه أن يكافح أيضا من اجل تحقيق شيء من الاطمئنان لوالديه وأن يبرهن على وجوده لجانبهما حتى كاد إحساسه بالواجب نحو أسرته أن يقضي على مستقبله المادي ..

ولكنه استطاع أخيرا أن ينتصر على جميع العقبات ويؤكد وجوده... وتجاوز أول تجربة كادت أن تضعه بين فكي الزمن الضائع ...

****

(2)

*على مـــرمى حجر ..

بعد تجاوزه لمحنته.. فضل جون أن يواكب عصره وأن يطوّر نفسه والعالم المحيط به.. لكن ظلت صفة الإنسان الطيب البريء المثقف المتحمس المثالي ملتصقة به ...

أيقن هذا الأخير أن القدر ألقى به في هذه البيئة التي تجري فيها أحداث حياته فأخذ على عاتقه تطويرها حتى ترتقي إلى المستوى الذي ينشده و حتى لا يضمحل نتيجة لافتقاره إلى الزمالة الفكرية ...

لقد كان يرى أن المجتمع ليست له اهتمامات راقية لأنه يعيش حياة تافهة .. فالمخادعون متخمون بينما يقتات الشرفاء من الفتات .. إنه يشعر أن المجتمع بحاجة إلى المدارس لتطوير وبناء الإنسان النموذجي وبحاجة إلى المكتبات العامة لتغذية العقول ..وكان من ذلك النوع الذي يلتهم صنوفا من المعرفة تزيد من إحساسه بالغربة في مجتمعه وشعوره بالتفوق عليه , ومن هنا تكون الأزمة ... فهو لا يتلاءم مع هذا المجتمع ولا يستطيع إن يرقى إليه أو أن يشعر بالقيم التي يريدها أن تسوده ...

و يأتي الإنقسام في شخصية جون ويبدأ الصراع بين واقعه المثالي وبين الواقع الملموس بكل بؤسه وتعاسته وآلامه ولا مناص له أن يسلك احد الطريقين .. إما أن ينتمي إلى هذا المجتمع ويرضى بكل ما فيه وتسوده نزعة الرضا بالواقع فتذوب شخصيته وتتحلل وتتحول إلى رقم من الأرقام الشائعة , أو أن يلقي نفسه إلى مقاومة هذا المجتمع لكي يفرض عليه الوحدة والارتقاء وهي في الغالب مقاومة انتحارية تنتهي باليأس والقنوط وبكل مايسبب شلل الفكر والروح والوجدان ..

لقد أخذ على عاتقه مهمة العمل المتواصل وبذل الجهد من اجل الإرادة والتطوير فقد كان يؤمن بأن القدر شيء نصنعه نحن البشر .. وأن الإنسان **مخيَّر في مايعلم . مسيَّر في ما لا يعلم ..**

اراد جون ان يبني قاعدة متينة للبيئة الجديدة يكون اساسها المحبة والعمل جاءه ذات يوم أحد عماله الذين كانوا يعملون لديه في متجره الأول ويدعى إيفان وشكى لجون سوء المعاملة التي يتلقاها من رب عمله وكيف صار هذا الأخير متسلطا على العمال بعد رحيل جون وفض الشراكة بينه وبين هذا المتسلط ..شعر جون بالمهانة لما يجري فقد كان ايفان بمثابة ابنه رغم تقارب السنين بينهما .. كما أن عائلة ايفان تكن المودة والاحترام لجون بسبب أفضاله عليهم ومساندته لهم في الأزمات والشدائد ...

عزم جون على مساعدة إيفان وعائلته واتخذ من هذه الأسرة قاعدة للتغيير والتطوير وبرغم أن ثروته المادية قد تضاءلت إلا أن عزيمته ما زالت صامدة ...

كانت أسرة إيفان تمتلك محلا في بيتهم يعيشون على إيجاره الشهري وكان قريبهم المستأجر رجلا بليدا ومتسلطا لا يعطهم إلا القليل وكانوا يرضون بأي حال من الأحوال..

لكن جون وضع حدا لمعاناتهم واستأجر منهم المحل بسعر باهظ فقام بتوسيعه وتجهيزه ليكون مركزا نموذجيا للتعليم والتدريب على الحاسب الآلي وساعدته في ذلك خبرته اللامحدودة في هذا المجال ... فقام بتدريب إيفان وجعله شريكا معه دون مقابل ..وارتسمت الفرحة على إيفان ودبّت السعادة في أوساط أسرته .. وأرضى بطلنا طموحه ..

بينما كان جون عاكفا على دراسة خطط مشروعه الجديد اتصلت به كارلا شقيقة إيفان وطلبت لقاءه على وجه السرعة في المستشفى الذي تعمل فيه كممرضة .. ظن جون أن كارلا في ورطة وأنها تحتاج لمساعدته وذهب إليها ... لم تكن المرة الأولى التي يلتقي فيها جون بكارلا .. فقد كان يراها عند زيارته لعائلتها ويدعمها لتكون مثالية في عملها فهو يقدس مهنتها لما فيها من رأفة وحنين ..

التقت كارلا بجون وشكرته وأثنت عليه لما قام به من جهد كبير في سبيل إسعاد أسرتها... لكن جون بفطرته أدرك أن كارلا تخفي شيئا وراء هذا اللقاء ..

و بعد حديث طويل افصحت كارلا قائلة :

– لست أدري كيف انقلبت حياتي رأسا على عقب منذ الوهلة الأولى التي رايتك فيها جون ... لقد وجدت نفسي مشدودة إليك وان هناك رغبة عارمة في رؤيتك على الدوام لقد حاولت أن أكون الفتاة الرزينة المثالية كما طلبت مني دوما .. لكن هناك إعصارا داخلي يجتاحني كلما رأيتك أو سمعت صوتك .. فتمالكت نفسي وسيطرت على مشاعري طوال أربع سنوات.. وهاهي نفسي تخذلني أمامك لتعلن لك أني أحبك... يا جون ....

قالت تلك الكلمات ..ورمت نفسها بين ذراعيه وهي تجهش في بكاء عميق ....

كان لابد لنا هنا أن نقف وقفة بسيطة في حياة جون فإذا تعمقنا قليلا في سيرته نجد أن جون رجلا فصيح اللسان ، صادق ، غير منافق ، ولا يح ب المجادلة ، معبر بجدارة عن رأيه ، ويحب أن يدلى بالنصائح إلى الناس ، واثق من نفسه بالتأكيد، وصاحب ذاكرة قوية ، سريع الإدراك ..

وإذا ماطرقنا أبواب حياته العاطفية نجده أيضا من النوع الذي يمتاز بالعقلانية في الحب سينجذب إلى الفتاة الذكية ولن يهتم بأنوثتها ، فهو شخص عفيف النفس ، والخجل مايميزه فلا تنتظر منه أي فتاة أن يهديها قلبه في فترة الخطوبة حتى أنها ستشعر بأنه شخص بارد المشاعر وهي صورة خاطئة ....فجون من النوع الذي يعرف من الحب السلوك الحسن ، لا تعرف الغيرة له طريقاً ، ولن يشك في حبه بالتأكيد ، لن يرى ضرورة لكي يمتدح محاسن النساء ، ولن يعبر عن حبه وإعجابه بأنوثتهن فكل هذه الأمور ثانوية ، لكنه سيضحي من اجل حبيبته ويخلص لها لأنه يقيم علاقة متينة تستمر طوال العمر ...

لقد كان الفارس الذي تتمناه كل النساء ... وكان بشخصيته يغرس سهام الحب في قلب كل امرأة يلتقيها..وهذا ما دفع كارلا لاستدراجه إلى فخ الحب قبل أن تظفر به النساء الأخريات المحاطات به ...

في اليوم التالي تلقى جون دعوة عشاء من والد كارلا وايفان بمناسبة عيد ميلاد ابنته الصغرى رشا ... فلبى جون الدعوة وذهب في حلة أنيقة للغاية زادته وسامة ووقارا ولم ينسى كعادته هدية رائعة ... وشاركهم فرحتهم وسرورهم ...

بعد العشاء جذبه والد كارلا إلى زاوية في المنزل وعيون هذه الأخيرة وبسمتها تلاحقهم ... واستطرد قائلا في همس :

– عليك أن تعلم يابني أنك كنت سببا في هذه السعادة التي نلمسها الآن ... إنك صاحب أفضال عديدة علينا .. كما عليك أن تعلم أيضا أنني اتفقت أنا وزوجتي مادلين أن نرد لك هذا الجميل .. وبما أن كارلا قد باحت بسر حبها لوالدتها فقد رأينا أن تكون أنت فارس أحلامها ... بكل بساطة نريدك أن تكون زوجا لابنتنا كارلا حتى نكون قد رددنا لك ولو القليل مما فعلته من اجلنا ...نحن لا نريد منك شيئا لأننا متأكدين أنها ستكون أسعد النساء وهي بجوارك...

لم يكن جون من ذلك النوع الذي يساير الناس في مشاعرهم إنه يؤمن بالحب ويقدسه ويحترمه.. كما يؤمن بالتضحية ويقدسها ...لقد أيقن أن كارلا مغرمة به وأنها كانت سجينة حب صامت طوال هذه الفترة الطويلة ..وأن والديها يرون فيه صهرا جيدا لهم ..لقد لمس في شخصية كارلا العزم والإرادة القوية لتظفر به ... فاحترم إرادتها وعزم على خطبتها بعد أن شاور والدته التي فرحت بدورها ورأت أن في قراره حكمة كي تضمن لنفسها غاية.. ألا وهي استقرار ابنها بجوارها... ولم شمله... وانتزاع فكرة الهجرة من رأسه ...

بعد أيام قليلة وأثناء دوامها ...كانت كارلا تزاول عملها كالمعتاد في حجرة حقن الأطفال فدخل رجل إلى الحجرة خلسة واخذ يراقبها عن بعد ... لقد كان يرى فتاة في العشرين من عمرها ... تفوح انوثتها لتضيف على المكان لمسة رائعة .. كان يرى ملاك رحيما في ثوب امرأة ... تقدم نحوها باحترام شديد ووضع وردة أمامها قائلا :

– كم يسعدني أن أكون أول شخص يهنئك يا كارلا ... لقد قرر جون خطبتك ... لكن عليك أن تدركي أنه معجب بك فقط .. وانه قام بهذه التضحية لأسباب شخصية

... فلا تخيبي امله في ان تستحوذي على قلبه إن كنت جديرة به لانه مقتنع بان الحب الحقيقي يأتي بعد الزواج ..

رفعت كارلا رأسها مشدوهة أمام هذه الكلمات وعينيها تفيضان دموعا من الفرح .. وسرعان ما رمت نفسها بين ذراعي هذا الرجل الذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى جون نفسه .

أثناء الاستعداد لمراسم الخطوبة كان أمام جون حدثا آخر وهو افتتاح مركز التدريب الذي أنشأه ..لقد أراد أن يجعل من الحدثين نقطة انطلاق نحو طموحه ... وجمع الاستقرار والعمل في آن واحد وهما السلاح الذي كان يعول عليه لمحاربة البيئة الفاسدة التي كادت أن تدمره وتقضي على مستقبله ....

بالرغم من أن جون ضحى بنفسه من اجل كارلا وسعادتها وقدم نفسه في طبق من ذهب إليها ... إلا أنه كان يؤمن أيضا أن فكرة الزواج ستؤمن له ركيزة أساسية للتلاؤم مع البيئة أو المجتمع وبالتالي تكون الأسرة هدفه الأول ... يساعده في ذلك مشروعه التنموي... حتى يصل إلى غايته المنشودة وينجح في صنع زمن جديد وبيئة فاضلة أساسها التفاهم ...

لقد أدرك جون انه صار يقترب شيئا فشيئا ... وان الحقيقة التي يبحث عنها قد أصبحت على مرمى حجر ....

****

(3)

قراءات ...

على هامش الزمن ...

لو تمعنا في الأحداث السابقة التي جرت في حياة جون ... لوجدنا انه أراد أن يثبت للعالم أن الزيف.... مآله الفشل وأن الكذب ..مصيره الانهيار.. وأن الحقيقة هي التي تنتصر على الباطل في النهاية ...وذلك هو الجواب الذي كان يريد جون أن يلمسه في عامة الناس ...

لكن حقيقة الأمر ليست كذلك ... فجون وبرغم إيمانه العميق بوجود الله ووحدانيته كان ينكر وجود قوى الشر باختلاف أنواعها لقد رأى دوما أن الأشرار هم ضحية المجتمع وأن البيئة المحيطة بهم هي التي جعلت من الطيب شريرا ومن المتزن سكيرا الخ .....

لقد كان جون مقتنعا بمقولة الأديب **تولستوي** التي تقول :

((من الخطأ المتعارف عليه تقسيم الناس إلى طيبين وأشرار وأغبياء وأذكياء ..إن الإنسان في جريان مستمر ويحمل في ذاته جميع الإمكانيات فقد يكون غبيا ويصبح ذكيا ويكون شريرا ويغدو طيبا .. وهنا تكمن عظمة الإنسان .))

وجعلته أفكاره يرى الناس مغلوبين على أمرهم يتعرضون دوما للظلم وعدم الفهم ...لا دخل لقوى الشر فيهم ... أراد أن يصور أن الإنسان في جريان مستمر .. ويمكننا أن نرى هذا التصور إذا سلطنا الضوء على بعض كتاباته حيث يقول :

((إن شخصية (فلان) كما اعرفها أنا ليست شخصيته كما تعرفها أنت , والصورة التي أحملها له في نفسي لا تطابق الصورة التي تحملها له أنت في نفسك .. إذن أن أراه طيبا وأنت تراه شريرا .. وإذا تجمع حكمي وحكمك عليه فإنهما يمثلان شخصين مختلفين ...وتتضاعف الشخصية بتضاعف العلاقات مع الناس ... فهل يمكنك هنا أن تخبرني أين هو (فلان) الحقيقي؟؟؟ .. وأين هي قوى الخير وقوى الشر هنا ...؟؟؟

هل لك أن تخبرني لما يسرق الناس ..؟ ولماذا يقتلون ...؟ أنا أخبرك أن السارق حجته الفقر والحاجة ...والقاتل حجته الانتقام ...والمتدين في زماننا حجته

الحقد والكراهية ...فايهما الشيطان القاتل ام المقتول ..؟ السارق ام المسروق ...؟))

هذه المقتطفات تبين الدلالة على طغيان الأفكار لديه...أما مواضي ع الاستسلام للشيطان فكان دوما يسخر منها لأنه رأى أن البيئة الفاسدة وعادات المجتمع البالية هي الشيطان الأكبر.. ولو توفر الفهم والإدراك والمجتمع المثالي للناس لما كان هنالك مكان للشر قط ..

لقد كتب جون في مذكراته : **((كان لي صديقا نبيلا يعمل بجد وكفاح ..تتدفق حيوية الشباب في عروقه ... وكانت له عشيقة يحبها حبا شديدا .. وحين كوّن لنفسه مكانة بين أقرانه توجه لأهلها بغية الزواج بها لكنهم رفضوه بحجة أن عاداتهم لا تسمح بأن يزوجوها إلا لواحد من أبناء أعمامها.. فما كان لصديقي من هذا الموقف نصيبا سوى الانهيار ... فتبدلت طباعه وتغير سلوكه للأسوأ ...وصار من رواد الحانات والأماكن المشبوهة ... أما حبيبته فلم يكن لها نصيب هي الأخرى من هذا الموقف سوى الانتحار .. نكاية في العادات العفنة التي حرمتها من حقها ...**

العرف والتقاليد الرائجة في المجتمع تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التي تحتوي على سرنا وحقيقتنا ...لا أريد أن أمضي في زحام الناس حتى لا أرضي غايتهم فألبس لهم نفسا مستعارة من التقاليد لأعجبهم ..لا أريد أن أكون إنسان يعيش بذات اجتماعية تتحرك بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عارمة...

الإنسان يأتي لهذه الدنيا مرة واحدة .... لذلك سأقبل عليها كما أريد..لا كما تريدني هي ...لقد خلق الله لنا الدنيا ولم يخلقنا لها ... وأنعم على الإنسان بنور البصيرة ليهتدي ...لماذا تقولون أن الدنيا أرادت لفلان ما أرادت ...؟؟ إنكم أنتم من أردتم له ما أردتم .. تماما .. مثلما أردتم لصديقي الضياع والفشل وحكمتم على حبيبته بالموت .....

لكن أعذروني أيها السادة لستم أنتم الجناة الحقيقيون ... ولا تحاولوا إقناعي أن القدر أو الشيطان كانوا احد الجناة ... الجاني الحقيقي هو تقاليدكم العفنة .. وعاداتكم البالية وخوفكم من المجتمع ...))

هذه العبارات تلخص لنا إرادة الصمود لدى جون وتؤكد لنا إصراره على متابعة صراعه بحثا عن الحقيقة التي تؤكد أفكاره ورؤيته ...لقد حطم بأسلوبه تلك الطريقة الكلاسيكية التي تتمثل في الرؤيا الثابتة للزمن ... وقد كان الناس يستمعون إليه ويعجبون لكلامه وحديثه وأفكاره ... لكنهم كانوا في نهاية الأمر يستسلمون لوطأة المجتمع القاسية التي تجعل منهم الضحية وتجعل الزمن عليهم أكبر جلاد ...

****

(4)

البعدُ ..الثالث..

خلال أسبوع خطوبته افتتح جون مركز التدريب ... وزفّ لرفاقه وأصدقاءه نبأ خطوبته بكارلا وبداية حقبة جديدة من العمل ... وجاءه المهنئون من كل حدب وصوب ... حتى أن بعضا من شركاءه القدامى في التجارة أتوا إليه مهنئين .... ويطلبون السماح على ما اقترفوه من خطأ في حقه ...وكان لهم ما أرادوا ... لأنهم قصدوا رجلا شريفا لم يعرف قلبه قط الحقد على البشر ...وبرغم أنهم اعترفوا أن ما اقترفوه كان بدافع الطمع والجشع إلا أن شهامة جون كانت أقوى من دوافعهم ... فهو لا يملك تلك الشخصية التي تحاسب الناس أو تدينهم .. و يفتقر للإيمان بحقه الشخصي فاصطدموا بطيبته الخالصة .. حتى أحسوا بالندم يجهش قلوبهم ...

كلنا نتفق مع جون في حنكته ومهارته وتماسكه لزمام الأمور بطرق نبيلة ... إننا نراه يوحد الصفوف ...ويبني بعدا جديدا بأسس مثالية رائعة ... هذا البعد أو الزمن كما يحب ان يسميه جون أعطى معنى آخر للإنسانية ... وبدأ يزيل عقبات الانفصال بين الإنسان وذاته وبيئته ....

لكـــــن .. كان هنالك بعدا ثالثا آخر لم يراه جون في حياته أبدا ..ولم يشغل نفسه عناء التفكير فيه مطلقا ....

بـــعدُ ... لم تعجبه شخصية جون في أن يكون لطيفا مع الناس على مختلف فئاتهم ومستوى تربيتهم ..وأن يقيم حوله حياة شريفة نظيفة وأن يبني مجدا رائعا ...

بـــعدُ ... يملك في طياته الدمار والخراب بما تحمله هذه الصفات من معاني عدو التقدم و شعاره التحطيم وزنزانته هزيلة شاحبة سوداء تنذر باليأس والقنوط ...

لم يكن هذا البعد الذي ظهر مع وجود البشرية سوى الشيطان بعينه ... لقد كان يتابع جون في أحداث حياته منذ ولادته ...

ويمكننا القول أن الشيطان هنا قد أبهرته شخصية جون في تحدي الصعاب ...أو أن ساعة الحرب الخفية قد حانت لمعركة فاصلة ... فقد قرر لقاء هذا الرجل الذي عجزت قوى الشر عن تدميره ... والذي استطاع بعزيمته الإيمانية طمس معالم

الشر في الإنسان ...فضاق الشيطان منه درعا ... وارتدى معطفه الاسود القاتم ... وامتطى فرسه ...وسل سيفه من غمده وشد جنده خلفه لملاقاة جون .. وبدأت نذر حرب مخيفة تلوح في الأفق ...

قبل يومين من خطوبته افتتح جون مركزه واستقبل أول دفعة من الطلبة والطالبات الذين كانوا مدفوعين بحماس للتتلمذ على يديه ... وفي خضم تلك الأحداث دفعت باب مكتبه امرأة في منتصف العشرينيات من عمرها ..بقامتها الفارغة وجسمها الممتلئ ...تتحلى بوجه صابح حسن وعينين توحي بالبراءة ... تطلعت في وجه جون الذي نظر إليها في صمت ولابتسامتها البيضاء ونظراتها التي تند عن امرأة جميلة تختفي أنوثتها تحت قسوة الزمن ...اقتربت منه ببطء شديد بعباءتها السوداء ووشاحها السماوي وجلست على أول كرسي قابلها في مكتبه بعد أن أذن لها بالجلوس ...فالتفتت إليه ودار بينهما هذا الحوار الذي أقسم جون على عدم نسيانه طوال حياته :

– إنني أبحث عن السيد جون ..؟؟

رد عليها جون وابتسامته على شفتيه :

– أنا السيد جون .. بماذا يمكنني أن أخدمك سيدتي ؟

ظهرت على ملامحها فرحة أخفتها بقوة واستطردت قائلة :

– لقد سمعت عنك ما يفرح القلوب ويثلج الصدور وعرفت أنه لازال هنالك رجال عظماء في زمن غلبت فيه الوحشية والشهوة على النفوس ... إنني أعمل موظفة منذ سبع سنوات في إحدى الشركات العامة التي ضربها الإفلاس مؤخرا ... فتوقفت رواتبنا مما زاد من معاناتي ... إنني من أسرة بسيطة ووالدي رجل متقاعد طاعن في السن ... ووالدتي تخبط في فراش المرض ... ولدي أخ فاشل في أي عمل يوكل إليه لقد سخرت نفسي للعمل بشرف لانتزاع أسرتي من نكبتها ... لكن الظروف تحاصرني من كل جانب وتثبت لي فشلي على الدوام ...

تنهد جون وهو يقول :

– عليك أن تعلمي أن واقعك المرير هو واقع الكثيرين في مجتمعنا لكن على الإنسان

ان يبقى هو المسيطر على واقعه... إنك تحاولين دفن نفسك في التضحيات التي لن تقتنع بها بيئتنا ...

ردت هي الأخرى بتنهيدة :

– كلامك صحيح سيد جون ... لأجل ذلك قصدتك راجية منك أن توظفني في مكتبك خلال الفترة المسائية ... إنني أجيد قليلا استخدام الحاسب ...ولا يهمني الراتب الذي ستحدده ...المهم عندي أن أكون نافعة في ظلك سيدي ...

نهض جون من مكتبه وهو يقول :

– رجائك مقبول .. لكني سأعمل على تدريبك أولا حتى تكتسبين الخبرة في هذا المجال ... لأني أود أن أجعل منك معلمة...فبعد أن تصبحي خبيرة ستقومين بإعطاء دورات مبدئية للطلبة صغار السن وتساعديهم على فهم وإدراك تقنية الحاسب ..وكل ذلك سيكون في فترة ساعتين أو ثلاث بعد نهاية دوامك الصباحي في الشركة التي تعملين بها..يمكنك مباشرة العمل غداً إن شئت ... ونظرا لبعض التزاماتي العائلية ستجدين شخصا يدعى إيفان وسيعطيك نسخة من مفتاح صالة التدريب ... عندها قومي بترتيب جدول الطلبة المنتسبين ومواعيدهم حسب وقتك ...

ثم إنحى جون نحو مكتبه والتقط ورقة صغيرة دوَن عليها رقما ناوله إليها متابعا :

– هذا رقم هاتفي الشخصي ... يمكنك الاتصال بي وقت الحاجة ..لكن الحديث أخذني ولم أتشرف بمعرفة اسمك سيدتي ...؟؟

وقفت في احترام شديد وتناولت الورقة بكلتا يديها ... ووجهها يملأه السرور ..ثم دنت منه بحياء واضح ومدت يدها تصافحه وهي تنظر في عينيه مباشرة قائلة :

– لقد كنت واثقة بأني سأجد عندك ضالتي ... انك لم تمنحني عملا فقط .. بل أعطيتني الثقة في نفسي ... إنني أشكرك من كل قلبي ...وأرجو أن أكون عند حسن ظنك بي ..يمكنك أن تسأل عن سيرتي في عملي أو جيراني فأنا أقطن في الجهة المجاورة .... بقي أن تعرف أني أدعى الآنسة لورا يا سيد جون...

قالت عبارتها الأخيرة في همس وبرقت عيناها بريقا مخيفا وسحبت يدها لتغادر

... لكن جون احكم قبضته على يدها ... فقد راى ان في عبارتها تصحيحا لخطا اقترفه في حواره معها...

– تشرفت بمعرفتك آنستي ...وأرجو أن تقبلي أسفي لأني ناديتك (سيدتي) ... لكني سأكون في غاية السرور إذا دعوتني (جون) فقط ...إنني لا آبه إلى حواجز التكاليف في تعاملي مع الناس حتى ولو كان هذا التعامل من النوع الذي ينبغي أن يحكمه الحزم والنظام ...لأنني بكل بساطة لا أحب ألقاب السيادة .....

كان رده عليها تملاه الثقة ..مما جعل الآنسة لورا تسحب يدها من قبضته في لطف زائد واستدارت مغادرة مكتبه وقلبها يخفق بقوة ... لقد أدركت أنها في حضرة رجل تشع منه العظمة والذكاء وتكسوه نياشين الشرف ... أما جون فقد تابعها ببصره من وراء زجاج مكتبه وهو يقرأ في خطواتها شيئا من الغموض ويسترجع ذلك البريق المخيف الذي لمع فجأة في عينها ...لم يكن يدري بطلنا ما تخفي وراءها.... فالآنسة لورا لم تكن في حقيقة الأمر سوى الشيطان نفسه ... الذي عزم على لقاء جون .... وتفرغ له ... ليفتح له أبواب الجحيم ....

في اليوم التالي للقائه بالآنسة لورا ... انشغل جون مع كارلا في وضع اللمسات الأخيرة على ترتيبات حفل الخطوبة الذي سيقام غدا عند المساء ...وبعد انتهاءه اتجه إلى مكتبه ليطمئن على سير العمل هناك فوقعت عيناه على الآنسة لورا وهي تعيد ترتيب صالة التدريب في همة ونشاط ... في تلك اللحظة دنا منه إيفان ليخبره أن الآنسة لورا قد باشرت العمل منذ ساعة وأنه سلمها مهامها كما طلب منه توجه جون نحوها قائلا :

– مساء الخير آنسة لورا ... أرى انك تباشرين العمل باكرا وبحماس ونشاط ... كما لو انك لا تعملين في الفترة الصباحية ..؟

ردت عليه والدهشة تملأها :

– أوه سيد جون ...أقصد جون لقد أدهشتني بحضورك المفاجئ ... إن سر هذا النشاط الذي يملأني هو أني تغيبت اليوم عن العمل في الشركة ...والسبب أني استيقظت من نومي متأخرة ... لأني لم أنعم بنوم جيد ليلة الأمس ...

قاطعها جون بلباقة :

– لا أريد منك أن تهملي عملك بالشركة .. فكما سيكون لك هنا واجبات فكذلك هنالك أيضا واجبات ...ثم استردف قائلا : غدا هو يوم عطلة نهاية الأسبوع ..ماذا تفعلين عادة في مثل هذا اليوم ..؟

ردت لورا والحيرة في وجهها :

– إنني أقوم في العادة أنا وشقيقاتي بتدبير أمور البيت ..وبعدها تجلس العائلة للحديث والتسامر .. وأحيانا نقوم بزيارة أقارب لنا ...

قال جون :

– بما أنك صرت واحدة منا ... ما رأيك لو دعوتك مساء غد إلى حفلة خطوبتي على الآنسة كارلا شقيقة إيفان ...؟

كان وقع الخبر عليها كالصاعقة ... حتى أن جون لمح ذلك حين أوقعت الأوراق من يدها ... فانحنت بسرعة لالتقاطها ....وساعدها انحناءها على إخفاء ملامح وجهها المتهجم كي لا يلحظه جون ...

سألها في اهتمام بالغ : أتعانين من شيء آنسة لورا ...؟.

ردت في حزم :

– لا شيء يستدعي اهتمامك ... إنه مجرد صداع سببه إرهاق .....أو قلة نوم .... إنني حقا آسفة ..

ثم غيرت مجرى حديثها قائلة :

– مارأيك في الترتيب الذي قمت به في صالة التدريب ...؟

أجابها جون في حذر :

– لقد صرت يالورا المسئولة عن هذه الصالة ويسعدني أن ترتيبها كما تشائين ...لكنك لم تجيبيني بعد ...؟ هل ستأتي إلى حفلة الخطوبة غدا ..؟؟

أدركت لورا أن جون استدرجها إلى فخ الجواب ليفسر موقفها ... لكنها فضلت الهروب من هذا الموقف المتأزم وقالت : إنني حقا متعبة سيد جون ... أتسمح لي بالانصراف الآن ..؟

رد جون :

– هذا رأيي أنا أيضا .. فالتعب واضح على وجهك ...يكفيك عملا اليوم ..اذهبي لتنعمي بقسط من الراحة حتى تستردين نشاطك المعتاد ...

غادرت لورا مقر عملها الجديد في خطى متسارعة..وعيونها تفيض دموعا طوال الطريق إلى بيتها.. والأسئلة تنهش قلبها ... لماذا فعل بها جون هذا ...؟ لماذا لم تتعرف إليه من قبل ...؟ لقد أحبته من النظرة الأولى ... إنها تحس بالسعادة تغمرها كلما شاركها الحديث أو دنا منها ...إنها لم تعرف يوما شيء اسمه الحب ... حتى وجدت جون يشع منه نوره ...لقد أصابتها سهام العشق من شخصيته .... وهاهو يفر منها بكل سهولة لتفوز به كارلا ..

ودخلت غرفتها الصغيرة ...وأحكمت إغلاقها ....فألقت بجسدها على السرير... وهي تجهش بالبكاء ...ثم غرقت في سبات عميق ...

إن أي متتبع لهذه الأحداث قد يرى أن لورا كانت مندفعة في حبها لجون ..وكأن أحدا ما دفعها لتقوم بهذه التراجيديا الرومانسية ... وقد يرى البعض أنها أخطأت في تفسير مشاعرها بمزج الإعجاب والاحترام اللذا ن تكنهما لجون في آن واحد ... لكن الحقيقة أقوى من ذلك .. لقد أحبته فعلا من خالص قلبها من النظرة الأولى ... لكن هناك من سيستغل هذا الحب ... ويحوله إلى سلاح فتاك ضد طموح جون وسعادته ...

جرت مراسم الخطوبة على أكمل وجه ...حتى خيل للحاضرين أنه عرس ملوكي ..وكان مشهد كارلا بفستانها في غاية الروعة وهي متأبطة لذراع خطيبها طوال الحفل وكأنها تقول للناس ما أسعدني بحبيبي جون ... أما هذا الأخير فكان في حلته الأنيقة في غاية الوسامة مع ابتسامته الرصينة على شفتيه والتي لم تزده إلا هيبة ووقارا ....

في تلك الليلة كانت لورا في غرفتها تجلس على حافة سريرها ..غارقة في تحليل عميق لما يجري ...لقد أرادت أن تحزم أمرها كي لا تعود للعمل في مكتب جون ....فتناهى لمسامعها صوت أبواق السيارات تعلن لها نهاية حفلة كارلا

وجون ... واخذت الحسرة تنهش قلبها من جديد ..وبدات دموعها تنهمر ... لكن هذه المرة بشدة حتى فقدت وعيها ...

أفاقت لورا من غيبوبتها على صوت يهمس في أذنيها وكأن أحدا يناديها ... فتحت عينيها بحذر ونظرت إلى الساعة فأدركت أنها الثالثة صباحا .. حاولت أن تنهض لكنها فوجئت بعجزها ...وكأن أحد جاثم فوق جسدها ...انهارت قواها ..واستسلمت لعجزها... وفجأة سمعت ذلك الصوت الهامس من جديد يناديها قائلا :

يا ابنتي لورا ... لماذا تقتلين نفسك بالحسرة ؟؟ إنك ترين الأمور من زاوية أخرى... كيف تقررين ترك عملك في مكتب جون ..؟؟ وقد منحك ثقته وحبه وحنانه ..صدقيني يا صغيرتي إن جون أغرم بك منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه عليك ... وقد سمعت دقات قلبه تصرخ باسمك ... لا تغرك خطوبته الزائفة... فكارلا لن تدوم له طويلا ... لأن جون خلق لك أنت فقط ... صحيح أنها فازت به اليوم ..لكنه سيكون غدا لك أنت وحدك ...لا تتهوري في اتخاذ أي قرار أحمق حتى تفكري في كلامي ... لقد رأيتك تتعذبين طوال حياتك وتدفنين أنوثتك وراء المكاتب بلا طائل ...لذلك قررت المجيء إليك لأمد لك يد المساعدة ... وهاهو يوم سعدك قد اقترب ...وما عليك فقط سوى أن تساعديني يا ابنتي ...

ردت لورا على هذا الصوت الهامس في خفوت والرعشة تدب في أوصالها :

– وكيف أساعدك ...؟؟

جاءها الجواب من ذلك الصوت الهامس ممزوجا بالمكر والدهاء :

عليك أن تسلميني فكرك ... وتنفذي أوامري ...وسأكون لك العبد المطيع والخادم الأمين ..الذي يسمع بأذنك ويتكلم بلسانك ...

هزت لورا رأسها بحركة تدل على القبول والإيجاب وسمعت ضحكة تردد صداها في حجرتها ... وشعرت بارتياح عميق ... لم تكن لورا تعلم أنها كانت في حضرة الشيطان وأنها سلمته أمرها واستسلمت له ... لقد فتحت بيدها أبواب الجحيم على جون دون أن تدري .. ودقت بيدها الأخرى طبول حرب شريرة مدمرة لا هوادة فيها ....

لقد عرف الشيطان كيف يحكم قبضته على لورا ...فكان معه مفتاح القفص الذي

بنته حول نفسها وهي تبحث عن طريق للهروب من واقعها المرير ... لقد باعت لورا نفسها للشيطان وأسلمت له قيادتها ...وشعرت منذ البداية أنه سيدها وقائدها ...وتيقنت أنها تسير في الطريق السليم الذي يرسمه لها ...

باختصار .... صارت لورا تلميذة من تلاميذ الشيطان ... واستجابت لهذه التلمذة لتحررها من قيود الحياة .. وتجعل من جون فارس أحلامها الأول ....

****

(5)

*تلاميذ الشيطـــــان

مرت الأيام ... وجون يحقق إنجازات رائعة في حياته العملية والعائلية ... وكانت نجاحاته تتوالى الواحدة تلو الأخرى .. لقد حقق مركز التدريب شهرة واسعة الآفاق في أشهره الأولى وصار يجني أرباحا ومكاسب معنوية ... هاهو طموح جون ينمو ويكبر ...فلم يكن من ذلك النوع الذي يلهمه الكسب المادي بقدر مايهمه تمديد جسور التواصل بين الفرد وبيئته ...

وزرع بذور العلم في نفوس طلابه ... حتى وصل به الأمر في كثير من الأحيان إلى تعليم و تدريب الناس ...دون مقابل مادي ...أو بأسعار زهيدة ... هاهي لورا بفضله قد صارت معلمة في مركزه ... وهاهو إيفان ضمن لنفسه عملا ودخلا شهريا...

وهاهي كارلا خطيبته تبني نفسها في ظله لتكون المرأة المثالية في حياته المستقبلية ..

أثناء هذه الأحداث ... كان الشيطان يجلس في ركن هذه البيئة المثالية التي شيدها جون حوله ..ينتظر في صبر الفرصة السانحة للانقضاض على رجلنا وتدمير تضحياته ... وحانت اللحظة الفاصلة ...فاستل الشيطان سيفه ... ونشر جنده ..وهبت رياح الشر القاسية ...

كانت أول صدمة تلقاها جون حين اكتشف أن إيفان يسرقه ...ولم يكتفي بالسرقة فقط بل كان يستغل الطلبة والذين أعفاهم جون من دفع مستحقات التدريب ...فيطالبهم بالأموال حتى يتسنى لهم متابعة حصصهم التعليمية ...

استشاط جون غضبا من تصرف إيفان ... وواجهه بالأمر وطلب منه تفسيرا لأعماله الدنيئة.. لكن رد إيفان كان وقحا ويحمل من السخرية ما يزيده دناءة قائلا :

– إنك ياجون تبدد أموالك ووقتك على هؤلاء الحثالة من المجتمع ... كي ترقى بهم إلى مستوى فكرة تافهة في نفسك ...في حين أنه باستطاعتك جني الأموال منهم ... حتى تضمن استقرار مستقبلك مع شقيقتي كارلا ...وتصبحا من الطبقة الغنية ... إنك تسير يا جون في طريق لا يسمن ويغني من جوع ... وإذا بقيت في عالمك المثالي هذا .. فإني أراك لست أهلا لأن تكون زوجا لشقيقتي كارلا ..

لم يستطع جون كتم غضبه فقام بصفع إيفان على وجهه ..وغادر مكتبه وصفق الباب خلفه بقوة ... واستقل سيارته ...ورحل ... طوال الطريق كان يقود وعيونه تفيض دموعا لما جرى ...لقد كانت بحق صدمة شديدة على نفسيته ...وتأججت الأسئلة في فكره ...لماذا فعل إيفان ما فعل ؟؟؟ ولماذا تغيرت شخصيته واتخذت هذا المنحنى المادي الخطير ...ولماذا أقحم شقيقته كارلا في حديثه معه ..؟؟

انتزعه من أفكاره فجأة رنين هاتفه ...وأتاه صوت بارد من الطرف الآخر :

– إنني حقا آسفة يا جون لما جرى بينك وبين إيفان ... لا أنكر عليك أنني مازلت مصدومة من أفعال إيفان وطريقة رده أثناء حديثه معك ...إنني مشغولة جدا عليك ..

رد جون :

– أرجو أن تقبلي أنت يا لورا أسفي لأني قمت بصفعه أمامك ... فماكان لهذا الأمر أن يحدث .. لو تماسكت نفسي وسيطرت على غضبي ...فلا تشغلي نفسك بي ...فقد اعتدت على مثل هذه الأمور في الماضي ... أحتاج فقط لأن أكون وحيدا حتى أصفي ذهني و أستعيد صفائي ..

أدركت لورا أن جون من النوع الذي لا يحتاج إلى المواساة... ولا يقبل أن يكون في موقع الشفقة ... لقد اكتشفت طابعا عسكريا كان يخفيه في شخصيته ..يستمد منه قوته ... ويجتاز به محنه ... أغلقت سماعة الهاتف بهدوء وارتسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة ماكرة وازدادت يقينا في نفسها بأن خادمها الأمين وأستاذها صاحب الصوت الهامس.. كان وراء ما حدث ... فالأمور بدأت تسير لصالحها ...وشيطانها قد بدأ العمل لأجلها ...

في اليوم التالي كان على جون أن يشرح الموقف لعائلة إيفان ....فقد اتصلت كارلا به واعتذرت منه عما بدر من شقيقها .. و أخبرته بأن إيفان قد شكى لوالدتها التي غضبت بدورها وأخبرت زوجها حين علمت أن جون قد صفع ابنهما المدلل .. وكعادته ..حاول جون التغلب على هذه الأزمة بقلب طاهر وموقف نبيل تجلت فيه شهامته التي تدفعه إلى إشعاع السعادة في أركان هذه الأسرة لما تمثله من قيمة له في المستقبل .. وحتى يعم السلام في بيئته ...لكن الشيطان قد سبقه ... وأوقد نار

العداوة في نفسية إيفان .. واشعل البغض في عائلته .. ماعدا كارلا فقد كان حبها لجون أقوى من أن تزحزحه قوى الشر .. أو أن تلهو به معالم الحقد والكراهية .. فلقد كانت كارلا تحاول جاهدة أن تعيد صورة جون الحقيقية إلى أذهان أسرتها ...وأن تكشف لهم وقاحة شقيقها إيفان وسلوكه المتعجرف الذي لا يهمه سوى المال ...

بعد تلك الحادثة ... مرت الأيام بحذر ... وكان جون يحاول جاهدا في أن يصلح شيئا من شخصية إيفان .. حتى لا يهوي به سلوكه نحو الهاوية ... فشهامة جون ونظرياته تمنعه أن يطلق حكما قاسيا على الآخرين لمجرد خطا اقترفوه أو نزعة عابرة في أنفسهم ...فقد كان يرى أن إيفان ... استهوته السلطة على الآخرين بحكم المكانة التي منحها له في تسيير مركز التدريب ... كما رأى أيضا في أنه كان سببا في ما جرى لإيفان ... وعليه أن يأخذ على عاتقه مهمة استرداد الشخصية الحقيقية لإيفان والتي تمتاز بسلوكها الطيب الحسن ...

لم يحاول جون تقويض صلاحيات إيفان في عمله معه ... بل على العكس فقد أشعره بأنه صاحب المكانة العليا وصاحب أفضال عديدة وراء شهرة المركز فكثيرا ما كان ينسب جون أفكاره العبقرية لإيفان محاولا بذلك جعله يشعر بإنسانيته .. وأنه محور يعتمد عليه في هذا المجتمع ...وبدأ هذا الأخير يتحسن سلوكه ...ويسيطر على قوى الشر ويطردها من داخله... وينصت لصوت العقل والواجب ... وهاهو جون يلمس النجاح في مهمته ...ويسدد ضربة للشيطان الذي ازداد إعجابه ببطلنا ... وتقبل الهزيمة الأولى منه بكل برود ... وأدرك أن عدوه جون هذا .... إنسان من نوع آخر ...فعزم على ملاقاته في جولة أخرى تكون أشد قسوة ... وأفتك دمارا ...

بالرغم من أن شخصيته تتناول جملة من المواهب الفطرية والمكتسبة من عظمة وقوة وصبر وشرف ... جعلت من الشيطان نفسه الاعتراف بها ... إلا أن جون كان يفتقد إلى تلك الحلقة المفقودة التي أهملها أو بالأحرى تعمد إغفالها في ميدان أحداثه ...فبرغم عمق إيمانه الديني بوجود الله ووحدانيته وإخلاصه الدائم في عبادته إلا أن جون ولأسباب في نفسه جعلته لا يعترف بقوى الشر في البشرية ... لم يكن يؤمن بوجود مملكة الشيطان وأعوانه ...أو بوجود السحر وطلاسمه ... فقد

كانت نظرياته تفند تلك الإدعاءات المزيفة في نظره ... حتى كتاباته جاءت معبرة عن تلك النظريات قائلا فيها :

((كلنا نعيش أحداث في واقعنا الاجتماعي من حوادث قتل وسرقة واختلاس ونفتح إذاعاتنا لتقابلنا نشراتها بويلات الحروب والانقلابات العسكرية الخ ...وكلما حاولت فهم الأسباب الكامنة وراء تلك الأحداث ... تأتيني الأصوات من كل صوب لتأكد لي أن الشيطان وراء ما يجري ...إنكم لو تسنى لكم الذهاب لأي شخص قابع خلف زنزانته وسألتموه عن سبب ارتكابه لجريمة القتل في حق زوجته لأجابكم على الفور أن الشيطان أغواه ليقوم بفعلته ... ولو استوقفتم مذنبا آخر وسألتموه عن سبب إدانته لكان جوابه أيضا أن الشيطان أغواه ليختلس أموال الناس التي أمّنوه عليها .... ولو شاهدتم يوما شخصا مجنونا يتجول حافيا لأيقنتم أنه أصابه مس شيطاني من جراء سحر أو طلاسم مشعوذ ...

إن يقينكم الخاطئ هو ما جعل شخصية الشيطان الوهمية تتسلل إلى قلوبكم وتخفي عنكم أخطاءكم التي اقترفتموها في حق أنفسكم ... فلو صنفنا هذه النماذج الإنسانية السابقة وحللنا أسباب جرمهم لوجدنا أن الأول قتل زوجته بسبب خيانتها له مع رجل آخر ذو سلطة وثراء ...ولو بحثنا في النموذج الثاني لعرفنا أنه كان يعاني من أزمات مالية وديون أثقلت كاهله جعلته يختلس المال لينقذ طفلته الصغيرة من الموت... ولو تكلم ذلك المجنون الحافي القدمين لأخبرنا بأنه بريء من قضية قضى بسببها عشرون سنة سجنا خطأً ... أدت إلى فقدان عقله ..

فأين شيطانكم هنا ؟؟ ...وأين هو في حرب مدمرة راح ضحيتها ألوفا من البشر.. وقامت بسبب نشوة عابرة لحاكمين طاغيتين تحرك كل منهما نشوة الطمع لبسط نفوذ أوسع ..؟؟ إن البيئة التي نشأنا فيها جعلتنا نشرب هذه الأفكار الساذجة منذ نعومة أظافرنا .. وخلقت لنا عدو ا وهميا ليشغلنا عن الارتقاء بأنفسنا إلى أعلى درجات السمو ...))

تلك هي مشكلة جون في تعامله مع العوالم الخفية ... لقد لمسنا في كلماته السابقة إنكارا قويا لوجودها ... فإلى أين أراد جون أن يقودنا ...؟؟ وماهي الحقيقة التي يحاول جاهدا أن يوصلها إلينا ..؟؟ إنه يشكل لنا عالما شاسع الأرجاء .. عميق الأغوار ..متكامل العناصر ..تتصارع فيه أفكار أقوى منا نحن البشر ...عالم تسوده قوة جون السحرية الغريبة عنا .. وهو يعرض لنا فكرة تضيع في لا نهاية سديمية ... ويبشرنا برسالة لعلها ليست موجهة إلينا في الأصل .. وها نحن حائرين في فهم مغزاها ...

كان لابد لنا أن نعيش أحداثه وإنسانيته المعذبة ... وننحني أمام اللانهاية فقد كانت رغبته تلتهمه في صمت ... وهي رغبة روحية جسدية تنخسه مثل الإبر ... وتتركه ظمآن على الدوام لايرتوي .. إن الله لا يعاقبه من أجل شكوكه أو إنكاره للقدر... بل بسبب محبته إياه .... تلك هي الحقيقة التي كان يطاردها ويقسو على نفسه لإخراجها إلى العلن ....

كان لابد لنا أن نعيش معه آلامه ... وأن نرى كيف أن القدر و الشر يقسوان عليه ويطاردانه ليبرزان له وجودهما في هذه الدنيا ...وكان لنا أن نبحث معه نحن أيضا عن الحقيقة التي دفع ثمنها غاليا لتبصر النور وذلك ما جعلنا نحبه ونفهمه ...

لقد أقسم الشيطان على ملاقاة جون في جولة ثانية من الصراع الخفي والعلني... جولة تكون أشد قسوة وافتك دمارا ... لقد عزمت قوى الشر عن تحطيمه فغيرت أساليبها وخططها .. لتكون أقوى من ذي قبل ...

لم يمر الوقت طويلا ... حتى ولدت الصدمة الثانية والتي كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ... فقد اكتشف جون أن إيفان اتخذ منحنى آخر من الوقاحة والدناءة الخفية ... فأثناء مراجعته لبعض سجلات مركز التدريب ... اتضح لجون أن إيفان كان يسرق ملفات خططه العملية ويبيعها للجهات المنافسة ... ولم يكتفي بهذا فقط بل قام أيضا بالاستحواذ على وثائق الملكية ومحاولة تزويرها ليبسط نفوذه على مركز التدريب ويلقي بجون إلى الشارع ...

كان لجون بعض المعارف والأصدقاء في الجهات الحكومية والمعنية بمشروعه

والذين اخبروه بدورهم ان إيفان ياتي إليهم ويعرض الرشاوى عليهم في إلحاح... ليغيروا ملكية المركز لصالحه ... لكنهم كانوا يصرون عليه إحضار موافقة خطية من جون تأكد تنازله عن إدارة المركز وتفويض إيفان مالكا عليه ...

أمام هذه الأحداث .. ووسط دهشة وغضب عارمين ...كان لابد لجون أخذ رد صارم تجاه هذا الموقف الطامع الحاقد الذي يتربص به ... كان باستطاعته أن يفصل إيفان من العمل ...ويوقف بذلك هذا الشبح الذي يحمل بين طياته الطمع والجشع والخراب لمشروع تنموي لم يتواجد في الحقيقة إلا ليخرج الآخرين من محنتهم .. وينير لهم نور العلم والمستقبل لكن إيفان لم يفعل .. بل حاول إيجاد مخرج ودي لهذه الأزمة ...

فالتقى بسانشيز والد إيفان في مكتبه واشتكى له قائلا :

– سيد سانشيز ... عليك أن تعلم أن إيفان بمثابة ابن لي ... ومعاملتي له لا تقل عن معاملتك له كأب ... إن إيفان يسير في طريق مآله الفشل والضياع وتقوده نزعة زائفة فهو يرى أن هذا المكان وجد ليشبع رغباته ويملأ جيوبه على حساب المستضعفين .. لكن الحقيقة ليست كذلك .. فمنذ أول يوم عزمت فيه على تأسيس هذا المكتب كان هدفي أن أجعله منارة للعلم وانتشال المحتاجين له من فكي الزمن الذي طغى عليهم بأميته ...ولقد رأيت من المستحسن أن أوظف إيفان في إحدى الشركات خلال الفترة الصباحية فهناك أصدقاء لي سيأخذون بيده ويوجهونه ليكتسب الخبرة والتفوق اللذا ن يفتقر إليهما .. فما رأيك سيد سانشيز ؟

كان سانشيز رجلا لا يفقه من العلم إلا القليل ذو طباع تجعله من ذلك النوع الذي يقبل بكل رضا أن تسيطر عليه زوجته و أسرته ..وكان رده على جون كالآتي :

– عليك أن تعلم أنت ياجون أن ابني إيفان لا يخفي عني شاردة أو واردة ... إني أعلم بما جرى بينكم في الشهر الماضي ... حين قمت بصفعه على وجهه بعد أن طالبك بنصيبه الشهري في أرباح المكتب ... لكنك ياسيد جون تأكل نصيب الأسد وتترك لابني الفتات ...إنك يا سيد جون المحترم تستخدم ابني عبدا لديك بينما هو شريكا معك ... وتحاول دوما أن تهمشه وتقتل كل بذرة طموح في نفسه ... وها أنت الآن تحاول إبعاده عنك وتتحجج بتوظيفه في إحدى الشركات حتى يخلي لك الطريق لخططك

التي تخفيها وراء قناع الشرف والنبل والتضحية ولتستحوذ على المركز وارباحه كاملة ..

أثناء هذا الحديث دخل إيفان إلى مكتب جون.. وعلى شفاهه ارتسمت ابتسامة عريضة خبيثة تنم عن المكر والدهاء ... وتزيد من هول الصدمة على نفسية جون الذي كان يصغي باهتمام شديد مع تحليل عميق لفهم حقيقة ما يجري ...

تابع سانشيز حديثه وهو يومئ بحركة لابنه إيفان للجلوس بصمت ... متابعا قوله :

– إنني لن أسمح ولن أرضى بما تفعله يا سيد جون .... فكما قمت بصفع ابني في السابق لمجرد أنه طالبك بحقه لست أدري ما ستفعله به في الغد ...

لم يصبر جون فقاطعه بصرامة :

– هراء ...!! إن ابنك إيفان لم يدفع معي فلسا واحدا حين أسست هذا المركز ...لقد صرفت كل ما املك على هذا المكان ..وأنفقت وقتي وجهدي كي يتبوأ مكانته الحالية. عليك أن تسال ابنتك كارلا فهي على علم بهذا الموضوع حين ناقشت معي أمورنا المادية في المستقبل ..فكيف تأتيني الآن لتفرض علي ابنك شريكا وبالمناصفة ؟؟؟

وبدموع مزيفة وبصوت يجهش بالبكاء قاطعه إيفان قائلا :

– إنه يكذب عليك يا أبي كما كذب على كارلا .. لقد أوهمها وغسل دماغها بمهارته حتى أني لم أعد الأخ العزيز عليها ...

وفي تلك البهرجة الكلامية تدخل سانشيز قائلا :

– اسمع ياجون ... إن خطورة الوضع الجاري تجعلني أتدخل لوضع حد له ...منذ هذه اللحظة لا يحق لك أن تلتقي أو ترى ابنتي كارلا حتى في أماكن عامة ... لا أنكر أنها خطيبتك لكن عليك أن تعي أن تقاليدنا لا تسمح لفتياتنا بهذا اللقاء حتى يتزوجن أما موضوع مركز التدريب فاعتبارا من الشهر القادم سأحل أنا محل ابني في الحسابات معك .. وستتنازل لي عن إدارته المادية بالكامل حتى تتقاسما أرباحكما مناصفة ... وتكون بذلك عادلا يا سيد جون .. بقي أن تعرف أنني ساهمت مع ابني إيفان بمبلغ كبير من المال أثناء تأسيس هذا المركز ... فإذا كنت تدعي أنك قد أسسته لوحدك و

بمجهوداتك المادية ... عليك ان تخبرني اين ذهب المبلغ الذي منحته لابني حين اراد أن يشاركك ...؟

قاطعه جون :

– وجه سؤالك هذا يا سيد سانشيز لابنك المدلل أين أنفقه .... كما عليك أن تتقصى أيضا في أي شيء صرفه .... ورجاءاً ..لا تقحم كارلا في خلافانا مرة أخرى... حتى لا تضفي طابعا آخر على علاقتنا وتساهم في تهديم مستقبلها... وبما أن يوم غد يوافق نهاية الشهر ... فليكن اليوم الفاصل في خلافنا وستعلم من الحقائق ما يجعلك تقتنع أن ابنك المدلل إيفان لم يخفي عليك شيئا أبدا ...

هب سانشيز وابنه وغادروا المكتب في هدوء ... وامتلأت نفوسهم يقينا بأن جون سيخضع لمطالبهم خوفا على سمعة المركز وشهرته وخوفا على علاقته بخطيبته كارلا وبذلك يتسنى لهم بسط نفوذهم ...

لقد عرف إيفان بدعم من والدته مادلين كيف يختلق الأكاذيب ويزيف الحقائق ويقنع والده بأنه شريكا لجون ... وأن هذا الأخير لم تكن أفضاله على الأسرة على مر السنوات ...سوى باب يلج منه للظفر بكارلا واتخاذها زوجة له في المستقبل وهذا ماجعل سانشيز يقحم ابنته في الجدال ويتخذها نقطة ضعف ليجبر جون على الخضوع والاستسلام لشهواتهم المادية ...

هاهو جون يجد نفسه في موقف لايحسد عليه ... إن القدر مصر على أن يرمي به إلى الهاوية ... وهاهي تضحياته تريح سدى ... فقد كان طوال حياته مستعد ليضحي بوجوده من أجل فكرة نبيلة وأمل كبير ... فلعل قوة أفكاره وإيمانه بنظرياته هي التي حملت عليه الاعتقاد بأن الآخرين لهم الحق في تصرفاتهم ... فهو لا يمقتهم بل يراهم معذورين لأنهم مدفوعين بدوافع زمن حاقد .. ذلك الزمن الذي ترجى في جعله أفضل ولو على حساب نفسه..

بعد تلقيه لتلك الصدمة من إيفان ووالده سانشيز ... بقى جون غارقا في مكتبه ساعات يتخبط في حرقة مريرة ... ويحاول جاهدا أن يعصر أفكاره ليخرج بشيء يريح جميع الأطراف وكانت لورا تقف على باب مكتبه تشدها الشفقة عليه

وعلى مظهره الذي صار كئيبا بعد ان تناهى إلى مسامعها ما جرى ...حاولت الدخول إليه ومواساته قليلا لأنها لم تتعود أن تراه في مثل هذا الموقف وبهذه الصورة الكئيبة فالتفت إليها بعينين شبه دامعتين قائلا في خفوت :

– آنسة لورا .. كان عليك أن تغادري فأنت لم تعتادي أن تظلي هنا حتى هذه الساعة المتأخرة ...؟؟

ردت لورا في حنان واضح : لقد منعتني نفسي أن ارحل وأتركك تتخبط في همومك أنا آسفة سيد جون ... لقد سمعت ما دار بينك وبين إيفان ووالده ... ويأسفني أن أرى مثل هذه الحماقات تصدر عنهم طعنا في شرفك ونبلك ...

تنهد جون قائلا :

– كان من الطبيعي أن تستمعي لحديثنا ... فهما لم يقيمان اعتبارا لحضورك آو لوجود أحد بصراخهما العالي ... أرجو أن لا يكون الطلبة قد أحسوا بشيء أو سمعوا بالخلاف الدائر أثناء تواجدهم ...؟

ردت لورا :

– لا عليك... فنحن نعرف شخصية جون الحقيقية ... ذلك الرجل الذي يحترق مثل الشمعة ليضيء دروبنا وينير المستقبل أمامنا ... فكل مذمة في حقك هي بالنسبة لي ولطلابك المخلصين... شهادة خالصة بأنك أروع إنسان عرفناه على مر الزمن ...

قال جون في حياء : أشكرك يا آنسة لورا ...و لا تكلفي نفسك عنائي ... فلكل مشكلة حل ولقد اتخذت الآن قرارا حازما ... قرارا مصيريا لست أدري عواقبه ...

قال كلماته الأخيرة بشيء من الثقة والحزم وتناول سماعة الهاتف بيده ...جعلها تغادر مكتبه و قلبها يخفق بقوة ....

تناول جون سماعة الهاتف وطلب رقم المستشفى الذي تعمل به خطيبته كارلا ...

وماهي إلا ثوانٍ حتى جاءه صوتها من الطرف الآخر تطلب مقابلته على وجه السرعة ..لقد كانت كارلا مدركة لما يجري وأنها علمت بان شقيقها إيفان ووالدتها يهيآن لخطة ضده لم تعلم فحواها .. والتقى الخطيبان في ساحة المستشفى وبدأت كارلا تبكي بشدة حين علمت ماجرى بين حبيبها جون وأسرتها وازداد ألمها حين

ادركت انهم جعلوا منها كبش المحرقة لتنفيذ خطتهم ..

لقد اصطدمت بحقيقة أسرتها كما أصطدم بها جون أيضا ..ومستقبلها معه صار مجهولا في ضل مطامعهم وابتزازهم لرجل أحبته من صميم قلبها طوال أربع سنوات وساندهم في الشدائد عقدا من الزمن ...لقد طلب منها جون أن تحضر غدا جلسة عائلية مصيرية في بيت أسرتها ستغير مجرى حياتهما وتكون نقطة الفصل في سطر آخر من سطور المعاناة ...

في اليوم التالي... حضر جون برفقة والده ووالدته ...وفي جلسة عائلية حضرها كل من سانشيز وزوجته وابنهما المدلل إيفان ... لاحظ جون غياب كارلا .. فسألت عنها والدة جون لكن مادلين اعتذرت عن مناداتها لأن والدها أصر على عدم انضمامها إليهم ..

مرت الدقائق في صمت مريب ....فتوجه جون بنظره إلى والد كارلا قائلا :

– لنبدأ حديثنا يا سيد سانشيز عن المبلغ الذي منحته لابنك ... هل توصلت لشيء حول سر اختفاءه ...؟؟

رد سانشيز بحذر بينما ظل ابنه إيفان جامدا في مقعده :

– أظن يا سيد جون أنني أخبرتك أثناء حديثي معك بالأمس ... إن المال لم يختفي كما تدعي .. فقد منحته لابني بكلتا يداي ليكون شريكا معك ... وهاأنت تنكره ...!!

قال جون والثقة تملأه :

– لماذا لا نوجه سؤالنا لابنك بما انه هوالذي تسلم منك المال يا سيد سانشيز...في تلك الفترة ولست أنا ...!!

التفتت عيون الحاضرين صوب إيفان الذي تكمش في مجلسه ورد بصوت طفولي :

– لقد استلمت منك المبلغ يا أبي ومنحته لجون بعدما أقنعني أني سأكون شريكا له في المركز كما أخبرتك ...

قاطعه جون ملوحا بيده وهو يخرج بعض الأوراق من جيب سترته قائلا :

– هاهي وثيقة تسديد دين لرجل يدعى (رانوف) وهو أح د شركائي السابقين في التجارة والذي كنت أنت يا إيفان في السابق عاملا لديه ... لقد كان مدينا لك

بحوالي ربع المبلغ الذي اخذته من والدك ...وهاهي بعض الفواتير النقدية ... تاكد لنا بأن إيفان سانشيز كان يستأجر جناحا في إحدى الملاهي الليلية الباهظة الثمن ...وبقيمة مالية لا تقل عن السابقة ...وهاهي رسالة ياسيد سانشيز موجهة لك شخصيا من المعهد الذي تخرج منه إيفان العام الماضي ...تطالبك بدفع تكاليف محاضراته ومستحقات دراسته..والتي قام ابنك المدلل بإخفائها عنك لمدة سنة كاملة حتى تسنى له دفع تكاليف دراسته في الأشهر الماضية ..

ولو دققنا في هذه الوثائق نجد أن إيفان سانشيز قام بتسديد هذه الديون في تواريخ متقاربة من تاريخ استلامه للمبلغ من والده .. ولو جمعنا قيمة الديون في هذه الوثائق لحصلنا على إجمالي يعادل ثلاث أرباع القيمة المالية التي يزعم إيفان أنه منحها لي ليكون شريكا معي ..

ثم رمى جون بتلك الأوراق للسيد سانشي ز الذي صار وجهه شاحبا من هول الصدمة .. ثم تابع كلامه قائلا :

– لقد وعدتك يا سيد سانشيز أنني سأطلعك على الحقائق كاملة حتى تعلم أن ابنك إيفان لم يخفي عنك شيئا طيلة حياته كم قلت لي بالأمس ...وهاأنذا أفي بوعدي لك ... بقي أن تعلم شيئا عن ربع المبلغ المتبقي ... وستدرك الجواب عند زوجتك مادلين حين تلحظ أن في يدها سوار ذهبي .. أهداه إياها ابنها المدلل أثناء فترة خطوبتي لكارلا.. أو بالأحرى كان رشوة منه لها لتنفيذ مخطط ما ...وسؤالي هنا... هل كنت تعلم ياسيد سانشيز حقيقة ما يجري ....؟؟

تجمد سانشيز في مقعده وأحكم قبضته على تلك الأوراق في غضب واضح وعيناه مسمرتان على ابنه جون الذي كان يرتجف في وضوح ...دون أن ينبس ببنت شفه ... وبعد صمت مريب ...وسط ذهول الحاضرين ودهشتهم ...غادرت مادلين زوجة سانشيز المجلس بحركة تدل في وضوح على أنها أحرجت أمامهم ... لقد كشف جون حقيقة ما كان يدور خلف الكواليس... فإيفان اقترض الأموال من والده لإنفاقها في رغباته وتسديد ديونه وليس ليشارك بها جون في مركز التدريب ... لقد كذب إيفان على والده والخطير في الأمر أن والدته مادلين كانت على علم بما يجري ....فقد

فضحها ذلك السوار الذهبي في معصمها... اية عائلة هذه وجد جون نفسه فيها ...؟؟ وأيهما الوجه الحقيقي لهذه العائلة ....؟؟

فجأة...صرخ سانشيز بغضب في وجه ابنه وهو يرمي بتلك الأوراق في وجهه قائلا :

– قل شيئا أيها الحقير ...!! لا تجلس أمامي صامتا ...!! لماذا فعلتم بي هذا أنت ووالدتك ...!! لقد منحتك كل ما أملك حتى تصير رجلا في ظل السيد جون..وها أنت اليوم تلفق الأكاذيب وتتهم غيرك لكي تبرر سرقتك أيها الحقير ...!!

تدخل جون مقاطعا :

– أرجوك سيد سانشيز تمالك أعصابك قليلا ... !! فالإنسان معرض لأن يخطأ في حق غيره ... إني مدرك لما تمر به في الوقت الحالي .. لذلك ...!!!

ثم سكت جون لبرهة واستطرد قائلا في حزم :

– سأتنازل عن مركز التدريب لإيفان وسأتركه له..!! وشرطي الوحيد هو أن يقوم بتسييره وإدارته على أكمل وجه ..!!!

انتفض جميع الحاضرين في ذهول أمام عبارة جون الأخيرة بمن فيهم سانشيز نفسه الذي رد عليه في اقتضاب :

– كلا سيد جون .. إن ابني إيفان لا يستحق منك كل هذا ... إنه عاجز عن تسيير نفسه فكيف سيقوم بإدارة مركز للتدريب ..؟؟؟

أجابه جون :

– لا تنسى أنه سعى منذ البداية ليكون السيد الأول وصاحب المكانة العليا للمركز ... وما تنازلي له سوى تضحية أخيرة سأقوم بها لأجلكم ... وبما انك ترفض تنازلي هذا فإن لي مطلب أخير أرجو أن لا ترفضه...!! ...

سأله سانشيز في اهتمام :

– وما هو هذا المطلب ...؟؟

أجابه جون :

– سأخلي لك المحل ...وسأباشر بنقل تجهيزاته منذ صباح الغد ...ساجد لك

مستاجرا اخر لكي يظل المحل شاغرا حتى لا تتعرض اسرتكم لمشاكل مادية كما في السابق ..

لا أريد شيئا مما أنفقته على المحل من تغيير وترميم ... كما أني لا أنوي أن استرد منكم أي مبالغ مالية أخرى من ديونك الماضية ..بل بالعكس سأمنح إيفان مبلغا ماليا تعويضا لما بدّره من أموال على نزواته الشخصية وبذلك أكون منحته فرصة أخيرة ليكون أفضل ...

ساد صمت رهيب بين الحاضرين ... وصار واضحا بأن الندم ينهش نفسية سانشيز حتى النخاع ... لقد استجاب لنزوات شخصية عابرة و أخطا في تقدير هذا الرجل... لقد عرف جون بشهامته وكرمه الزائدين كيف يكشف عن وجه الطمع الذي كانت تتحلى به هذه الأسرة ..كما عرف أيضا كيف يجتاز هذه العقبة ويكشف عن براءته ولو على حساب نفسه ...

لقد حاول سانشيز أن يعتذر لجون .. لكن شيئا من الكبرياء يقف عائقا أمامه فالخيانة بدرت من ابنه إيفان وزوجته مادلين ... وهاهو يرى أن الصمت هو سيد موقفه ...وسبيل نجاته ...

بعد دقائق طويلة من هذا الصمت خيل للجميع بأنها ساعات دهر طوال ... أطلق جون زفرة قوية أعقبها بكلمات موجهة لوالد كارلا أذهلت الحاضرين وزادت من هول المفاجأة :

– أظن أني يا سيد سانشيز قد وضعت النقاط على الحروف التي كانت مبهمة في نظرك ... بقي أن تدرك شيئا أخيرا هو ...!!

ثم نزع خاتم الخطوبة من يده وهو يتابع :

– لقد أيقنت منذ الوهلة الأولى انك تسعى للنسب لكن اتضحت أمور كثيرة جعلت هذا النسب يتحول في لحظات إلى استغلال وجشع وكسب .. لذلك .. ومع فائق احترامي أعلن لك ولكافة الحضور أني بكل أسف أفسخ خطوبتي اليوم على ابنتك كارلا ....

قال جون عبارته وهو يلقي بخاتم الخطوبة في حضن سانشيز الذي تسمرت عيناه في ذهول أمام هذا الموقف المفاجئ .... ثم وقف جون وألقى التحية هو

ووالديه وغادر مخلفا وراءه صرخة قوية اطلقتها كارلا تردد صداها ملء الافق ...

بعد أسبوعين ... وبعد أن أخلى جون المحل من تجهيزاته وقام بنقلها إلى بيت صديق له حتى يتسنى له إيجاد محل آخر لنشاطه المهني ... اقترض جون مبلغا ماليا كبيرا من بعض معارفه واستدعى إيفان إلى بيته ومنحه ذلك المبلغ قائلا له في حسرة :

– هذا المال مني لك يا إيفان ...وكلانا يعلم أنك لم تكن يوما شريكا لي ولو بفلس واحد لكن البيئة المحيطة بك جعلتك تنسج الروايات وتختلق الأكاذيب لتحقيق مطمع أو نزوة لا أجد لها أي معنى في حياة البشر .. ربما تكون قد ساهمت في ضياع مستقبل شقيقتك كارلا لكن اعلم انك لم تقتل ذرة من طموحي أو توقف مشوار التطوير الذي طالما سعيت في بناءه ... هذا المبلغ ليس دينا أو صدقة ... وإنما ثمنا لفعلك الدنيء ولدورك المسرحي الذي أجهدت نفسك عناء التمثيل طيلة الأشهر الماضية ... استثمره في أي شيء ينفعك في المستقبل .... وأتمنى لك حظا أفر ونبوغا أبكر ...

وبكل وقاحة ودناءة أخذ إيفان المال وقام بعدِه .... وغادر يرقص فرحا وطربا ...أما جون فقد فاضت عيناه بدموع صامتة ... بعدما عرف كيف أن للمال دورا كبيرا في نفوس البشر ... أو بالأحرى كيف أن هذا الزمن الذي يحاربه من أجل الآخرين يبرهن له عن الفشل في لحظات ...كان كعادته يتهم الزمن والبيئة ويجعلهما المجرمين الحقيقيين وراء كل مأساة أو تجربة تمر به ... وهاهو الآن يقتنع بالخسارة لقد رأى أن الزمن جعله يخسر خطيبته كارلا ويخسر إيفان الذي كان بمثابة ابن له .. ويخسر مكانته في أسرة علق عليها آمالا كبيرة ...

في تلك الأثناء ...لم يدرك جون أن المجرم الحقيقي وراء هذه الأزمة التي مرت به ..إنه عدو كان ولازال يتربص به ... عدو نسج شراكه بكل براعة وحنكة وأقسم على أن يخضع جون تحت قدميه بعدما خسر أمامه جولته الأولى ...

إنه السيد الأول للبعد الثالث الخفي ... وأستاذ النفوس الضعيفة .. إنه الشيطان الذي أطلق ضحكة قوية بعدما حقق مبتغاه ...وربح في الجولة الثانية ...

لقد برع هذا الاستاذ الخفي في ان يضرب بقوة هذه المرة ...فحطم مشروع خطبة جون ... وأغتال في سرعة طموحه التنموي بعدما ألقى به إلى نقطة الصفر ...

لقد عرف الشيطان كيف يستغل الآخرين ... ويحول هزيمته إلى نصر ... بمساعدة النفوس الضعيفة ... فهاهو يجعل لورا تتنفس الصعداء بعدما ارتادت بيوت العرافات والدجالين طيلة فترة عملها مع جون ... وكلها آملا أن تشتت تلك الخطوبة التي لم تقتنع بها ...وهاهو إيفان وقد ابتلع الطعم وكان السلاح الفتاك فيما جرى... بعدما أصبح تلميذا آخر من تلاميذ الشيطان....

****

(6)

*لحظة ... استنجاد

لم يكن جون حتى آخر لحظة منتظرا نهاية كالتي وقعت ...فتلك البذرة التي زرعها ورواها بنظرياته ومجهوداته.. يبست وماتت تماما ...لقد كان مخطئا في تقديره لمجريات الأمور ...بيد أن التيار أقوى من أن يستطيع مقاومته ... إنه يختنق بين جدران هذه البيئة التي كلما حاول أن يجعلها فاضلة زادت من ضيقها عليه ...

ويتضاعف هذا الشعور عنده بفعل ارتيابه في نفسه ... و يرى أن أشباح اليأس والخمول صارت تتسلل إلى محيطه ...ويحاول أن يجد مخرجا ليأسه لأنه لم يرق له أن يكون في ذلك الموقف الذي يجعله نموذجا يستسلم للزمن ويذوب في تلك البيئة ... لقد كان العبء يفوق قواه وهو في حاجة لمن يمد له العون ويساعده ...

إنه في حاجة إلى مبدأ ماوراء الخير والشر...في حاجة إلى إيمان قوي يشد من عزيمته لكن مطلبه هذا لا يمكن أن يوجه لأحد سوى لخالقه ويتضح لنا ذلك من كتاباته :

((أستنجد بك يا الهي لأني سمحت لنفسي أن أكون مرآة للسراب ... في عالم تغلبه الأهواء ...استدرجت إلى زمن من ورق...وقصور من ورق...وأناس من ورق ...لا يبتسمون إلا للمصلحة ولا يحبون إلا الشهوة ... رجال تبدو نفوسهم ناعمة لكن لمساتهم ثعبانية ... ونساء تغطيهن المساحيق وخطواتهن حربائية يتسللن للقلوب في صمت ...

أستنجد بك يا الهي من هذا العالم الجذاب الكذاب ...الذي تكون فيه النفس الإنسانية ذات سطحية تمضي في زحام الناس وقد لبست لهم قناعا مستعارا لتعجبهم .. وهذه الذات تمضي وقتها في التعازي والتهاني والمجاملات ....وتنفق حياتها في سخافات توصل من الباب إلى الباب ولا توصل من القلب على القلب ...

تذكرتك ياربي ... وأنا امشي في هذا العالم فشعرت بالغربة والانفصال ...ولم أجد أحدا اكلمه ويكلمني وأفهمه ويفهمني ... وأحسست بنفسي وحيدا غريبا منبوذا ...

وسمعت في قلبي صراخا يناديك كانت كل خلية في بدني تتوب وترجع ثم سمعتك تقول في حنان : ...لبيك عبدي ...!!

ورأيت يدك التي ليس كمثلها شيء تخرجني من نفسي على نفسك .. واختفى ذلك الزمن الورقي من أمامي .... وعدت أنا إليك سبحانك لا اله إلا أنت ولا موجود سواك ..

لقد أيقنت ذلك بالمثابرة ...وأدركته بالمعاناة .... وعرفته بالدم والعرق ومشوار الدموع وأنا أقع في الحفر ... وكلما وقعت في حفرة شعرت بيدك الكريمة تخرجني ... شعرت بك تربت على كتفي في حنان وتهمس في خاطري : .. أما كفاك عبدي ماعنيت ... أما اتعظت .. أما اعتبرت أما جاء اليوم الذي تنبت فيه قدمك وتستقر خطاك على الطريق ...

فأقول باكيا : ... شفيعي إليك صدقي ....وعذري إليك حبي للحق .... وذريعتي إلى عفوك رغبتي إلى الخير .. فمن خطيئتي نبتت الحكمة ....ومن دموع ندمي علّمت الناس فصدقوني حينما كلمتهم لأنهم رأوا كلماتي مغموسة بدمي ... وكل من عبر طريقي قلت له كلمة صدق ودللته على السلامة...

ربي ... ما أتيت الذنوب جرأة مني .. عليك ولا تطاولا على أمرك ... وإنما ضعفا وقصورا ... فانا أعمل جاهدا حتى لا تغلبني طينتي ويغلبني ترابي ..

ربي ... إني لا أشكو ولكن أرجو ... أرجو رحمتك التي وسعت كل شيء أن تسعني .. وأن تكون ظهيري في هذا الزمن حتى أدرك ما عزمت عليه ...))

لقد كان جون يدعو الله أن يمنحه قوة صبر عظيمة وإلهاما متكاملا حتى يستطيع أن يمضي في مشواره ... فهو يؤمن أن وراء الزمن والإنسان سر كبير ينبغي فهمه ... وأنه حين يهب حياته لهذه الغاية يتيقن أنه لم يهدرها سدى ولم يضيعها عبثا ... كان لابد له بمشاعر القلق والشعور بعدم التوافق مع تلك البيئة المغلقة أن ينطلق بحماس لكشف أغوارها ...فهو لم يكن رجلا عاديا ... ولا من ذلك النوع الذي يستسلم أو يتحطم شراعه لأول إعصار ..

واكتشف جون ان هناك يدا خفية تتحرك في الخفاء .... وصار يقترب شيئا فشيئا من الحقيقة ... لقد استجاب الله دعاءه .... فكشف له عن ذلك الجزء الذي ينقصه ... وترك له مهمة إيجاده بنفسه ...إنه الآن مدرك لوجود شيء خفي عن زمنه ومتأصل به في الوقت نفسه .

إن شهوة البحث عن الحقيقة تدفعه للتعمق في هذا الزمن وعالمه الروحي ..... وهي واضحة في الدلالة على القلق الذي يسيطر على بطلنا ووجدانه الحزين ... الذي لا يعرف الهدوء أو الاستقرار ...

وهنا ...كان لابد له من خوض تجربة أخرى مريرة في حياته ....حتى يكتشف الجوانب الخفية من ظلمات هذا العالم الواسع الأرجاء .... تلك التجربة القاسية التي كانت أول مفتاح للغز الحقيقة والتي سنعيش أحداثها المفعمة بالعذاب والصبر والإيمان ...

****

(7)

*على حافة الهاوية ..

مرت اربع اشهر ...وجون يسعى بكل ما اوتي من قوة ونفوذ حتى وجد أخيرا موطأ قدم جديد لمركز التدريب ...فقد كان مصرا وحازما بشدة على أن يتابع نشاطه دون يأس أو استسلام...أما الزمن فكان كفيلا بأن يطوي تلك الأيام البائسة التي مرت به في الآونة الأخيرة..

بدأت العقبات تنمو في طريق جون ...ووجد نفسه في ضائقة مالية ... فالمقر الجديد الذي استأجره يحتاج إلى بعض الترميمات والكماليات ... وهاهو وقد أصبح مدينا بمبلغ مالي اقترضه في السابق ليشتري به كرامته وشرفه من ذالك المدعو إيفان ... إن هذا المجد الذي يصر على أن يدركه يشكل له في الوقت ذاته الحلقة الأولى في السلسلة التي ستقيده إلى العمل الإجباري ... عليه أن يكد ليلا نهارا حتى يتخلص من تلك الديون التي حاصرته .. ويسترد حريته ... لكي يواصل طريق الإيمان بالمستقبل ... واليقين بالقدرة على فعل الخير ....

بحث جون عن دعم مادي لتكتمل مسيرة مشواره ....وعرض عليه صديقه (رانوف) أن يشاركه في مشروعه حتى يتحمل معه ذلك العبء الذي قيده ...ووافق جون على الشراكة ... وفعلا لم يبخل رانوف بشيء ... وسلم مقاليد الأمور لجون نظرا لخبرته الواسعة في هذا المجال ...

لكن ... تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ... ففي خضم تلك المساعي ولدت عقبات أخرى كثيرة على الصعيد المهني ...تجاوزها جون بعد أن أقدم على بيع سيارته ... وسدد بثمنها جزءا من ديونه ...

ومما زاد من معاناته ذالك الفراغ العاطفي الذي تركته وراءها خطيبته كارلا فلم يكن جون يجد أحدا يبث له همومه ويشكو له ...ذالك الفراغ الذي شكل الفرصة العظيمة للآنسة لورا لكي تقتحم قلب أعظم رجل أحبته ... وسعت إلى امتلاكه ... لقد أبقت صلتها بجون خلال تلك الفترة... فكانت تتصل به باستمرار ... وتأكد له في كل اتصال رغبتها واشتياقها للعمل في ظله وبدون أي مقابل مادي كدعم له ... لكن جون بفطرته وحدسه لمس شيئا من الاهتمام به في أسلوبها وتصرفاتها معه في تلك الفترة فالآنسة لورا تسعى لأن تجد موقعا لها في حياته ... موقعا يجعلها قريبة منه

على الدوام ....

مع مرور الأيام عمل جون بجد وسخر طاقاته وإمكانياته الفكرية ليعود إلى ذلك المجد الذي وصل إليه ذات يوم ... وليخرج نفسه من هاوية الديون التي سقط فيها إلا أن المقر الجديد لم يضع حدا لتلك الأزمة التي ظلت تلاحقه ... فلا يعرف مرة من المرات استطاع أن يقوم بعمل وهو متحرر من إحساس المطاردة ... وضرورة الوفاء بالتزامه نحو دائنيه ....فعملائه وزبائنه الذين كان يتعامل معهم في السابق خسرهم بسبب تلك النقلة التي انتقل بها من مكان لآخر ...وهاهو يحتاج إلى وقت طويل حتى يتسنى له الظهور بشكل جديد ومواكب للعصر ...

عزمت لورا على استئناف العمل مع جون بعدما اشترط هذا الأخير أن تعمل معه بمقابل مادي وراتب شهري كما في السابق ...وكانت سترضى بأي حال من الأحوال .. فجل همها يتمحور في وجودها قريبة من رجلها جون ....الذي ألهمها حبا وزاد من شغفها ...وكانت تحاول أن تفصح عن مشاعرها كلما سنحت لها الفرصة لذلك .. أما جون فكان لا يفكر إلا في شيء واحد ألا وهو ضعفه وما يكنه لنفسه .. فأعباء المركز والتزاماته المالية تتضاعف مرة تلو الأخرى ... ولم يكن له من مورد مادي آخر...فحتى وظيفته الحكومية التي كان يشغرها برتبته العسكرية تخلى عنها في لحظة ... وشعر بعد تركها بانعتاق عاطفي .. وقرر أن لا يعمل في أي دائرة حكومية أو عسكرية بعد ذلك .. فحين أرسل استقالته إلى الإدارة العسكرية ... تلقى منها رسالة طويلة تلومه بشدة لخطورة قراره .... وتشير عليه بإعادة النظر في الأمر ...لأن الإدارة تعول عليه كثيرا في العمل نظرا لعبقريته في ذلك المجال وحساسية منصبه ... لكن جون رفض التراجع مما فتح جبهة أخرى من الكر والفر بينه وبين المسئولين الذين سعوا على الفور إلى توقيف راتبه وتجميد رتبته وتقويض صلاحياته..... ليتركونه معلقا للزمن ...

ويتضاعف الشعور في نفسيته ... ويبحث عمن يشاطره تحمل ذلك الثقل الذي يئيد عليه فيتوجه لسكرتيرته الآنسة لورا ... ويبث لها همومه ... ويشكو ألمه :

– آه يا لورا ... إني أرى تعقيدات جديدة بدأت تطرأ على حياتي وتغيرها تماما ... وأنني لأجد الآن أنه صار يصعب علي إيجاد حل نهائي لها ... فكلما حاولت اجتياز عقبة في طريقي اصطدم فجأة بأخرى ... لان مكمن المشكلة لا يخصني وحدي .. وإنما صار يخص الآخرين من حولي .. لست أدري كيف صرت أتخذ قراراتي الأخيرة ..؟ ومع ذلك فقد سمحت لنفسي أن يدحرها العمل .. لقد تحولت حياتي إلى سلسلة من القلق ... وصارت نفسي تبرهن لي أن معظم البشر يعيشون حياة كئيبة من الدرجة الثانية لأنهم لا يعرفون مفهوم الارتقاء الروحي والذهني ...فكلما تعرفت على أحد أكتشف أنه مائة ألف واحد وأحيانا لا احد ...

والسؤال الذي ينهش كياني ... من هم الآخرون ...؟؟ وما هي حقيقتهم ..؟؟

وتحين اللحظة المناسبة ... وتستغل لورا ذلك الضعف لتفصح عن حبها :

– مضت سنة كاملة ... وأنا سجينة العذاب ومشكلتي الحقيقية هي أنت يا جون .. ذلك العذاب الذي كانت مجرد نظرة واحدة إليك ثمنا له ... خفق لها قلبي بقوة لأول مرة ... بدأت أتعذب .. أتعذب بحبك .. إنه من سابع المستحيلات أن أحب إنسانا آخر .. لقد حاولت أن أنسى ... لكني لم أجد السعادة إلا بجانبك ... ولا أرتو ي إلا بنظراتك التي كنت دوما تسحرني بها ... لقد دخلت حياتي يا جون لتقلبها رأسا على عقب أرجوك جون لا تتركني فليس لدي في هذا العالم سواك ...

لم يندهش جون أمام اعترافات لورا العاشقة ... فقد كان مدركا لذلك منذ البداية ... حين لاحظ استلطافها الزائد ومعاملتها معه التي تتخذ طابعا من الرومانسية فهي لم تكن من ذلك النوع الذي يخولها لإخفاء مشاعرها ... لكن جون أخفى عنها علمه بحبها الذي تكنه له ... وهاهو يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه ... لقد كان يشفق عليها ويحاول أن يمد لها يد العون وان يكون سندا لها في أزماتها... لكن لورا لم تفهم حقيقة مشاعره وفسرت تلك الشفقة بأنها انجذاب عاطفي نحوها

...وكان لابد له من ان يبعد شبح الحب من فكره ... فهو يعلم ان لورا والتي تكبره سنا تعاني أوضاعا عائلية صعبة وترى أن فكرة الزواج هي الخلاص الوحيد الذي سيضمن لها الحياة السعيدة ...

أراد جون أن يغير من مجرى تفكيرها وانتزاعها من ذلك الحب الذي فرض نفسه بالقوة .. دون أن يسبب لها صدمة عاطفية تزيد من يأسها ...

وكعادته أخذ على عاتقه مهمة أخرى مستحيلة ... فهو يحترم الحب ويقدسه ... ولا يلوم لورا على حبها له .... فكلما حاول صدها وصرف انتباهها عنه ... زادت من إصرارها وتعلقها به ... لكن المشكلة أكبر مما تخيل جون ... إنها ليست كباقي المعجبات اللواتي التقين به وصارحنه بمشاعرهن ... فقد كانت أنثى من نوع آخر ... أنثى مستعدة لعمل أي شيء يمكنها للظفر به ...

توالت الأيام في هدوء ... وبينما كان جون غارقا في عمله ذات يوم ..

اتصلت به لورا وهي تبكي بشدة .. وتشكو من وظيفتها في الشركة التي تعمل بها ... وكيف أن أرباب عملها يدفعونها إلى تقديم استقالتها حتى يتخلصون منها ...حاول جون التدخل لتصحيح الأمر والتقى بمديرها الذي استقبله بحرارة قائلا :

– إنه لشرف كبير أن التقيك سيد جون ...فلآنسة لورا لم يمر يوما دون أن تمتدحك وأعمالك العبقرية التي تنم على معاني الخير والشرف ..

وبابتسامة عريضة تدل على الود والاحترام أجابه جون :

–أنا أيضا يشرفني ياسيد كولن أن أكون في حضرتكم ... و يأسفني ما تمر به هذه الشركة من أزمات ومتاعب اقتصادية ... ولكم أتمنى أن يأتي اليوم الذي أراكم فيه وقد صرتم صرحا من صروح الاقتصاد كما كنتم في السابق ...

رد عليه كولن بيأس واضح :

– اجل سيد جون .. لكن الحياة تغيرت عن السابق كثيرا ... فالرواتب هنا موقوفة لأكثر من سنة ... مما دفع الكثير من الموظفين لهجرة الشركة ... كما أن السوق تعج بالسماسرة والمحتالين مما زاد في مسؤولياتي كمدير عام ...

– لا بأس سيد كولن فالإرادة صرحا قويا أمام هذه النزعات الفوضوية ... ومهما

تغيرت الحياة فهناك نفوس لا تشترى بالمال ... ولا تستغويها المصالح الشخصية ..

وبعد حديث طويل احتسى فيه كل من جون وكولن فنجان من القهوة في انسجام تام قال جون :

-لقد علمت يا سيد كولن بان لورا تعاني من بعض المشاكل هنا ... وقررت أن ألتقيك حتى نتفق على إيجاد مخرج لها من أزمتها ...فهل تمانع سيد كولن ..؟؟

تنحنح كولن في مجلسه وانحنى نحو جون وهو يقول :

- لست أمانع سيد جون ... فأنا أعرف مكانة لورا لديك ... وأحترم هذه المكانة وهذا الاهتمام لكن هناك أشياء خافية عنك في شخصيتها ... فالآنسة لورا موظفة لدينا منذ فترة طويلة ... لكنها لم تكتسب يوما ذلك الأسلوب الوظيفي الذي يخولها لأن تؤدي عملها على أكمل وجه ... إنني مثلك ياسيد جون ... فقد أخذت على عاتقي تحمل جهلها وأخطاءها في مهنتها منذ السنة الأولى وحاولت أن أرتقي بها للأفضل ... لكن زميلاتها كان لهم السبق في ذلك .. ومما زاد الأمر سوءا تخليها عن واجبتها في الفترة الأخيرة وكثرة غيابها دون مبرر ...

توجه كولن نحو أدراج مكتبته وسحب منه ملفا أطلعه على جون وهو يتابع :

- أنظر يا سيد جون ... فكل هذه التقارير تردني من رؤساء مكتبها يشكون من التسيب والإهمال في جل الأعمال الموكلة لها ... ولست اخفي عليك ... فقد قامت الآنسة لورا في الفترة الأخيرة بإحراجنا أمام بعض زبائننا بسبب خطأ حسابي فادح تسبب لنا في خسارة نحن في غنى عنها .. مما جعلني أستدعيها بالأمس إلى مكتبي وأطالبها بتقديم استقالتها...

صمت جون لبرهة وغرق في تفكير بسيط تم عاد يخاطب كولن :

- أظن يا سيد كولن أن الحق معك في قرار الاستقالة نظرا لما تمر به الشركة من ظروف صعبة ....وأنا جد متفهم لموقفك ... لذلك أرجو أن تقبل اعتذاري نيابة عن الآنسة لورا ...واعدك أني سأعمل جاهدا حتى أجد حلا لهذه المشكلة ...

أجابه كولن باحترام :

- لا داعي للشكر سيد جون ... فيكفي وجودك هنا خير دليل على اهتمامك

بمشاكلنا ومعاناتنا ارجو ان تكون لقاءاتنا القادمة لقاءات عمل متبادل بيننا وبينكم ...سررت بلقائك...

رد جون وهو يصافح كولن مودعا :

– اجل سيد كولن فهناك آفاق كثيرة ربما تجمعنا في المستقبل ...

غادر جون مقر الشركة والقلق يساوره وهو يسترجع ذلك الحديث مع كولن ... لقد كشف له هذا الأخير جانبا سلبيا من شخصية لورا ... ولقد رأى بأنه ربما يكون هو السبب في كل ماجرى لها ... بسبب ذلك الحب الذي تكنه له والذي شغلها عن أعمالها عند المساء استدعى جون لورا إلى مكتبه ... وطلب منها الجلوس ثم استهل حديثه :

– لقد قابلت مديرك اليوم ... وأطلعني على ملفك العملي بالشركة فاتضحت لي بعض الأمور الخطيرة يا لورا ...لست هنا لألومك على تلك الأشياء فالمرء معرض للخطأ في أي زمان ومكان ... لكن حين يكون ذلك الخطأ متعمدا فلا مجال لقبوله ...إنني الآن أطلب منك جوابا لسؤالي ... وبكل صراحة ..هل كان إهمالك لعملك في الشركة متعمدا ...؟؟

ترددت لورا في إجابته ... ثم قالت وهي تذرف دموعها :

– سأصارحك وليكن ما يكون ...إن حبي لك هو السبب ياجون في كل ما يجري من حولي ..

فقد تشوشت أفكاري منذ أن صار قلبي يهتف باسمك ... لست ادري مالذي يحدث لي أتمنى أن أقتل نفسي حتى تستريح مني ...

قاطعها جون قائلا :

– لا أريدك أن تعيشي في عالم من الأوهام يالورا ...ولا أريد أن أكون سببا فيما يجري من حولك ... عليك أن تدركي أن شعوري اتجاهك هو شعور طبيعي أكنه لكل البشر وأنت بالنسبة لي إنسانة أثق فيها واحترمها و ...

وتوقف عن الحديث فجأة ..وازدادت دقات قلبه ..حين رآها وقد فقدت وعيها ....

لم يتخيل جون يوما انه سيجد نفسه في ذلك الموقف الرهيب ... لقد اكتشف قوة هذا الحب الذي تكنه له لورا ... والذي يسعى جاهدا لتفاديه ... فهو لا يكن لها مشاعر

الحب المتبادل وإنما مشاعر احترام ومودة صافيين ...فمالذي تسعى إليه لورا ...؟؟
وهل يمكن أن يكون بتلك القسوة تجاه قلبها الرقيق الذي يخفق لأجله ...؟؟

مرت دقائق .. واستردت لورا وعيها ... وتفتح عينيها في بطء لتجد جون يمسح وجهها بمنديل مبلل في رفق وحنان ...وانتفض قلبها بقوة بين ضلوعها ... وعاودت الدموع تذرف على وجنتيها ... ورمت نفسها بين أحضانه كطفلة صغيرة وهي تجهش في بكاء عميق ... مما جعله يسحب نفسه بحركة آلية ويستطرد قائلا في خفوت :

– إنني أرى من المناسب أن تأخذي إجازة لبضع أيام ...فأنت تحتاجين لبعض الراحة يالورا ... وسنكمل حديثنا في وقت آخر مناسب ...

أومأت لورا برأسها بإيجاب وحملت نفسها وهي تمسح دموعها ... استوقف لها سيارة أجرة بعد أن أوصى السائق أن يحرص على إيصالها لبيتها ... ولوح لها بيده مودعا . ثم خفق قلبه بقوة بعدما رمقته بنظرة تحمل ذلك البريق المخيف الذي لمحه في عيونها عندما تعرف عليها أول مرة .....

لقد فشل الشيطان هنا في أن يستدرج جون إلى فخ محكم ... بعد أن نجح في تحطيمه ماديا في جولة سابقة .. وهذا الفشل سيجعل من تلميذته لورا تفقد ثقتها في أستاذها صاحب الصوت الهامس الذي قطع وعدا بأن يجعل من جون عشيقا لها ..لكن الوقت مازال في بدايته ... وهذا الأستاذ مصر على تنفيذ وعده مهما كلفه الثمن ,فقام بزيارتها في غرفتها التي كانت تجلس فيها وحيدة متذمرة ... واليأس يحيط بها من كل جانب ... وتمتم في أذنيها بصوته الهامس المعتاد :

– لم يفت الأوان بعد يا ابنتي لورا ...فحبيبك جون صعب المراس قليلا ... ولو سعينا في مطاردته بهذا الأسلوب الرومانسي لن تجني شيئا سوى العذاب .... علينا أن نغير خطتنا قليلا وننتقل لمرحلة أخرى حتى نستميل قلبه نحوك ...

ردت لورا وكأنها تحادث شخصا أمامها :

– وما الذي يمكنني فعله ..؟؟ لقد عملت ما بوسعي لأحصل عليه ... لكنه يصر على إبعادي في كل لحظة أحاول أن أكون فيها قريبة منه ..!!

قاطعها ذلك الصوت الهامس :

– لدي شيء آخر لك أكثر نفعا ...وهو مجرب وصحيح ونتائجه مبهرة ..!!

ردت لورا في لهفة :

– وما هو ذلك الشيء حتى أبيع عمري لأجله ...؟؟؟

أجابها في مكر :

– فقط عليك أن تذهبي لتلك العرافة التي كنت تترددين عليها في السابق ...وتطلبين منها هذه المرة أن تعطيك شيئا ... يأكله جون أو يشربه حتى يلتفت إليك ويهتم بك وبأنوثتك .. سترين سرعة النتائج بنفسك وتدركين قوتها ... وستلمسين الحب يشع منه نحوك ... وقلبه يخفق عشقا في أول لقاء معه ...

برقت عيناها في شدة ... وشعرت بنزوح تلك الكآبة من قلبها ...واستسلمت لنوم عميق في انتظار صباح الغد بلهفة شديدة ... حتى تنفذ خطة أستاذها الشيطان الذي ودّع تلميذته النجيبة وتمنى لها ليلة سعيدة ...

****

(8)

*وقفـــة تأمـــل ..

لا يمكننا أن نبالغ في أهمية هذا كله بالنسبة لمشاكل جون ... وإنما يعتبر هذا سببا من أسباب رفضه للبيئة المحيطة به وبعلاقاته مع الآخرين ... وقد أدركنا معه ذلك بوضوح .. فلا شك أن هذه البيئة التي يسعى بجهوده المتواصلة لتطويرها وترقيتها والتي أقبل عليها شابا طموحا يرى في التجدد ركيزة لبناء الإنسانية الجديدة قد دمرت هذا الطموح ولم تعد بالنسبة إليه سوى مكانا كئيبا حافلا بالعقبات والمشاق ..

رغم ذلك ... لم يتوقف بطلنا عن النفوذ إلى أعمق جذور المشكلة ...ويفتح على نفسه جبهات من التصدي المستميت بطريقة لا يمكن أن يفعل ذلك بها إلا النابغة فقلبه المصبوغ بالدماء قد جره إلى عالم البشر ... وهو يرى أن في تراجعه عن طموح أفكاره وانعزاله عن الآخرين ... تجعل منه رجلا يتدفق بالحقد والبغض والكراهية تجاه من أحبهم وساندهم على مر الزمن .. فحتى قصائده وكتاباته لم تجدي نفعا في جعلهم أناس واقعين لا تغلبهم معتقدات ولا تسيرهم عادات ...

وبدورنا كان لنا أن نعذر جون في أفكاره ... ونقدس رؤيته ... فقد وضع نفسه على أول طريق لاكتشاف الحقيقة ...تلك الحقيقة التي ستغير من مفهومه للبيئة بأسرها وتفتح له بعدا آخر من المآسي والآلام ...سيدرك جون حقيقة ذلك العدو الصامت الذي يعيقه ويلهو بالآخرين وحقائقهم ليظهرهم في صور مزيفة وأشكال متنوعة تخدعنا ...من يكون هذا العدو ..؟؟

وما مكمن خطورته ...؟؟ وإلى أين يريد أن يصل بنا ذلك العدو ..؟؟

هذا ما سترويه لنا تجربة ثالثة مروعة ... والتي تعتبر من أخطر التجارب في حياة جون ..

(9)

*حـــب وطلســـم.....

ودمـــــــــــوع ..

كان جون في مكتبه غارقا في حديث مع شخص يبدو للرائي من النظرة الأولى أنه شخص ذو منصب ومكانة رفيعين ... أغلق جون سماعة الهاتف بهدوء ينم عن الرضا والارتياح ... ثم طلب رقما آخر وماهي إلا ثوان حتى جاءه ذلك الصوت الرقيق عبر الأثير :

– صباح الخير سيد جون ..–

– صباح الخير آنسة لورا ... أرجو أن تكوني قد استمتعت بإجازتك جيدا ..؟؟

– أجل سيد جون والفضل يعود لك ... لكن لا أخفي عليك اشتياقي للعودة إلى المكتب

– لا عليك .. ولكني اتصلت بك لأنقل لك مفاجأة سارة ..!!

انتفض قلب لورا بقوة ... حتى خيل إليها أنه سيطلب يدها .. تم تابع جون كلامه ..

– لقد اتصلت لتوي بصديق لي ذو منصب رفيع ..وطلبت منه أن يتم نقل تعيينك من الشركة إلى إحدى المؤسسات المصرفية الجديدة التي يترأسها ..ولم يمتنع عن قبول طلبي ... كل ماعليك فقط أن تجهزي نفسك يوم الخميس القادم للمقابلة الشخصية ... وسأدعم ملفك بوثائق ترفع من قيمتك العلمية والعملية ...أما وضعك في الشركة فسأقوم شخصيا بتسويته مع مديرك السابق كولن ... وبإذن الله لن نختلف ..

كادت لورا أن تطير من الفرحة ... جعلتها تشهق في قوة وهي ترد متمتمة :

– آوه. !!. سيد جون ... أشكرك كثيرا .. لقد أجهدتك معي ... إنني حقا ممتنة لك ولصنيعك الذي لن أنساه طوال حياتي ...

– لا عليك آنسة لورا ... فمن واجبي أن أمد يد العون مادمت أقدر على فعل ذلك ... أرجو أن لا تخيبي ظني ... عليك أن تقومي بواجبك المهني على مكمل وجه ..

– مستحيل ...فأنا لن اخذل رجلا جعلني أستعيد ثقتي بنفسي ... واقتلع بذور اليأس من حياتي ... إنك فعلا شخص رائع يا سيد جون ..

قالت كلماتها وأغلقت هاتفها وضمته بقوة إلى صدرها ...فكل لحظة تمر .. تكشف لها عظمته وشرفه ....إنه رجل نبيل لم ترى له مثيل في حياتها ..مما زاد في إصرارها على اقتحام قلبه مهما كلفها الثمن ...

نجحت لورا في اجتياز المقابلة ... وعينت موظفة في تلك المؤسسة

المصرفية الجديدة وسويت امورها بالكامل ...

عند المساء وأثناء دوامها في مكتب جون دخلت عليه أثناء خلوته وهي تقول بمرح طفولي :

– أرجو أن يكون ملاكي الحارس ..راضيا عن سير عملي في المؤسسة الجديدة ؟؟

رد جون عليها وهو يرمقها بنظرة صارمة جعلتها تغير من أسلوبها الرومانسي :

– أجل .. فقد امتدح مديرك نجاحك في كل الأعمال الموكلة إليك داخل المؤسسة ...

– صحيح ... ولقد تأكدت من ذلك بنفسي حين علمت أن راتبي الجديد يفوق الراتب السابق .. ولا أخفي عليك سيد جون أنني قمت بتوقيع أوراق تخول لوالدتي وشقيقتي الحصول على قروض مالية محترمة من المؤسسة ... مما جعلني أنقل لك شكر وامتنان أسرتي بما في ذلك والدي ووالدتي ...

– أوه يالورا ..!! إنك فعلا تحرجيني ... فالفضل يرجع لله سبحانه وما أنا فقط إلا سبب ..

– يكفيك تواضعا سيد جون ... فلولاك ما كان لذلك وجود ... بالمناسبة لقد صنعت لك بيدي شيئا لذيذا حتى تدرك أني أيضا طباخة ماهرة ..إني أعلم أنك تعاني من فقدان للشهية وأنك ترهق نفسك بالعمل حتى صرت بهذا النحول .. لذلك فأنا أصر على أن أطعمك بنفسي ..

وفتحت حقيبتها وأخرجت منها تلك اللفافة وتناولت قطعة منها وأطعمتها لجون ... الذي غرته ثقته الزائدة ... ونفسيته الطيبة ...وفتح فمه في تواضع ... دون أن يدري أنه يفتحه للجحيم ... فلم تكن تلك القطعة سوى طلسم يختفي وراء قناع من الحلوى أعدته ببراعة إحدى العرافات ... ونفثت فيه من نفثات الشياطين ... لتظفر به لورا بكل يسر وسهولة ...

أمام هذا المشهد المخادع .... برقت عينا لورا في زهو وظفر ... وصفق لها أستاذها الشيطان بكل حرارة ... الذي عرف كيف يمسك بزمام المبادرة ... وينصب شركا محكما لغريمه الذي كان يذيقه طعم الهزيمة في كل جولة يلتقيه فيها ...

مرت اسابيع قليلة ... وبدا جون يشعر بالم في معدته ....لكنه لم يكترث به فقد كان يظن أن ذلك الألم سببه إفراطه في التدخين وكثرة شربه للمنبهات ... لكن الأسوأ في الأمر هي تلك القوة الخفية التي صارت تدفعه بشدة نحو لورا ...إنه ليس حبا أو شغفا ... فجون رجل واقعي ويتميز بحكمة تخوله لأن يدرك ذلك الشعور الذي بدأ يكنه للورا ... لكنه هذه المرة فشل بكل ما تحمل الكلمة من معنى .... لقد اكتشف أنه لا يحبها ... ولم يخفق قلبه لها قط ... ومع ذلك يحتاج إليها في كل لحظة ... ويجد راحته كلما كانت قريبة منه ... وتطور الأمر حين عزم أن يتخذها زوجة له دون أن يجد تفسيرا لهذه الظاهرة اللامنطقية التي اجتاحت شعوره فجأة ... وسيطرت على سلوكه ...

لقد كان بطلنا مدفوعا بقوة خفية عجز عن تحديد مركزها .... إنه يعجز حتى في التفكير بجدية في مشاعره نحو لورا واستنباط الحقيقة ... لكن الطلاسم كانت أقوى منه بكثير ... وصار سيل من التشتت يغزو فكره ... حتى لم يعد هنالك هدفا في حياته سوى لورا ...

بعد أيام من التفكير وضبط النفس ... استدعى جون لورا إلى مكتبه . وخاطبها قائلا :

– أيزعجك يالورا لو تحدثنا عن بعض الأمور الشخصية السابقة ...؟؟

أجابته في حذر :

– كلا سيد جون ...فأنا بالنسبة لك كتاب مفتوح تستطع قراءته متى شئت ..

– إني أتساءل منذ زمن عن عدم حضورك خلال حفل خطوبتي على كارلا ..؟؟

غرقت في تفكير عميق ... فقد جعلها سؤال جون تسترجع بداية أحداث عذاب حبها. تنحنحت في مجلسها في حياء وتنهدت وهي تمتم في خفوت :

– لقد كان ذلك اليوم أسوء أيام حياتي ... لو تعلم ياجون حرقة قلبي وأنا منزوية في غرفتي لا أجد للحياة معنى بدونك ... لقد أحسست في ذلك اليوم وكأن قلبي قد سرق مني و...

قاطعا جون بابتسامة تحمل من الحنان ما يجعلها تتوقف عن الكلام دون شعور :

– أيفاجئك لو قلت لك أني كنت مدركا لحبك لي منذ البداية ...؟؟؟ ولكنني

حاولت بكل قوة ان لا اجرح شعورك او ان اكون سببا في صدمة عاطفية تكونين ضحيتها ..لقد سخرت طاقتي لأبعدك عن مجرى حياتي الشخصية لكني فوجئت باني أبعد شيئا أنا في أمس الحاجة إليه ..

نهض من مقعده واتجه نحوها ... وأمسك يدها في حنان وهو يقول :

إنني فعلا احتاجك لتملئي فراغ حياتي ... باختصار .. لقد أحببتك يالورا ..

لم تستطع لورا أن تمتص هول المفاجأة التي وقعت عليها ... إنها لا تصدق نفسها هاهو الرجل الذي شغفها حبا يعلن لها بكل بساطة أنه مغرم بها ...

ارتمت على صدره وضمته إليها بقوة و تفجرت عيناها بالدموع ...فهي لم تبكي في حياتها كما بكت في تلك اللحظة ... وشعرت بالسعادة تسري في جسدها بعدما أيقنت أن حلمها أصبح حقيقة ...

بعد ذلك المشهد الرومانسي ... تأخر الوقت... ولورا لم تغادر مكتب جون وقد انتهى دوامها بساعات ... فشقيقها لم يأت إليها كعادته ... مما جعل من جون أن يأخذ على عاتقه مهمة توصيلها إلى بيتها ويستغل هذه المبادرة حتى يتعرف على مقر سكنها أو أن يقابل أحدا من أسرتها .. وفعلا وجد جون والد لورا واقفا أمام باب البيت وقد بدا انشغاله على ابنته واضحا .. فبمجرد أن رأى لورا بصحبة جون ... تنفس الصعداء وتقدم نحو هذا الأخير وهو يصافحه بحرارة معبرا عن شكره لما يقدمه لابنته من خدمات واهتمام ...

في تلك الليلة ... عاد جون إلى منزله منهكا ... وخيل إليه وكأنه قد رمى بثقل من على كتفيه ... لقد واجه قلقه ... وصرح بحقيقة مشاعره نحوها ... وهو لا يدري كيف قال لها بكل وضوح ((احبك)) ... إنه يقدس تلك الكلمة التي تعني له الكثير في هذا العالم ..إنها بالنسبة له ليست مجرد كلمة ... وإنما نافذة يطل منها على حقيقته وسره ... لقد أخفى هذه الكلمة منذ زمن حتى يجد لها الأنثى التي تستحقها عن جدارة ...وبرغم أنه كان محاطا بعيون فتيات عدة حاولن إقتحام قلبه ... إلا أنه وجد نفسه مدفوعا لقولها أمام لورا ... حتى وإن كان عقله يخبره بأنها ليست فارسة أحلامه أو تلك المرأة المثقفة المثالية الجميلة التي كان دوما يحلم بها ... والتي سيخفق لها

قلبه منذ الوهلة الاولى ... إلا ان شيئا ما يدفعه بقوة ليقنعه بانها اميرته الحسناء ... وأنها الأنثى الأخيرة التي ستكون أما لأطفاله ...

وتقلب جون في فراشه تلك الليلة وهو يبحث عن السر الذي قاده لإعلان حبه للورا .. وزاد من معاناته ذلك الألم في معدته الذي عاوده مرة أخرى ... فأرهقه التفكير ...وأنهكه التعب ...ولم يكن له من سبيل سوى أن يستسلم لنوم عميق ...

أما لورا فقد كانت في تلك الليلة غارقة في سيل من الأفكار الوردية ... بعينين نصف مغمضتين ... وهي تتأمل سقف غرفتها ... حتى قاطعها فجأة ذلك الصوت الهامس قائـــــــلا :

– أهنئك يا عزيزتي لورا ... ها أنت الآن عشيقة لجون... وقد حققت أروع أحلام حياتك ..

أجابته بنبرة تدل على الثقة والارتياح .. وعيناها الناعستين تجوبان سقف الغرفة :

– الفضل لك يا أستاذي العزيز ... وإني ممتنة لك ولتلك العرافة الباهرة ... لقد انتشلتموني من يأسي وكآبتي بعدما فقدت الأمل ...

قالت عبارتها لشيطانها وغلبها الكرى واستسلمت للنوم بعد أن وثقت حقبة من الحب المطلسم .

****

(10)

* حين تكون لا أحد

الناس .. والخوف من الناس ذلك هو الشبح الذي يقتل استجابتنا لنداء الحياة حاولت أن لا استجيب لنداء الناس وللفكر الوسواس فرماني المجتمع الذي أعيش فيه بشتى النعوت من جنون وغرابة وعدم انتماء وكأنني من كوكب آخر أو من زمن آخر ...هذا المجتمع الذي يستريح لفكرته اللامنطقية من حيث العقل ويتخبط في دهاليز تقاليده العفنة .

كلنا نقول نفس الكلام لكننا جميعا ننطوي على عالم من الأشياء كل منا له عالمه الخاص .. فكيف نقدر على التفاهم إذا كنت أضع في الكلمات التي أقولها المعنى والقيمة للأشياء كما هي في الأعماق بينما الذي يسمعها يتقبلها من غير شك ويعطيها القيمة التي تتماشى مع نظريته

نحن نعتقد أننا متفاهمون لكننا لم نتفاهم يوما هذه هي الحقيقة التي تفصل الكثيرين لأن الكلمات في حد ذاتها فارغة وكل ينقلها حسب الحقيقة التي في نفسه .

إنها كارثة مجتمع ...

أو بالأحرى مصيبة مجتمع ...

مصيبة حين لا يمكنني أن أوصل إليك الأشياء التي في فكري كما أفسرها . لقد استعملنا نفس الحروف ونفس الكلمات ونفس اللغة ولكن ما ذنبنا إذا كانت الكلمات في حد ذاتها فارغة وأنا أملأها بإحساسي عندما القي بها إليك.

غريب هذا المجتمع الذي يعيش في نفسه ما ورثه عن آباءه وأجداده أكواما من المعتقدات القديمة والاعتقادات التي أدت إلى عدة تجاوزات . غريب هذا المجتمع الذي لا يريد أن يتحرر أو أن يرتقي إلى فضاء الحضارة والتطور .

انه مجتمع مادي يحكم بيني وبينك يا حبيبتي حتى هذه الكلمة الرائعة لابد لها في هذا المجتمع أن يكون لها مقابل مادي حتى يسمح لها أن تتغلغل إلى قلبك أي أن يتوفر لها بيت وسيارة وحساب مصرفي وطابور من المدعوين ....

مجتمع غريب تكاد تكون فيه التحية بمقابل لا يهم من أنت المهم أن تكون صاحب مادة يمكنك حينها أن تحضي بمن تحب وتتزوجها وتمارس حبك معها كما تشاء مجتمع لا يهمه إلا الناس : استرنا أمام الناس واكفينا من أقوال الناس .

يا لهذه الحقارة يا لهذه القذارة لا يرون إلا الناس والناس ولا يعلمون ان بقلوبهم مرتعا للفكر الوسواس الخناس .

فكيف تريدين لهذا النموذج من المجتمع أن يتماشى مع نظريتي وان يتماشى مع حبي لك , للأسف هذه هي الحقيقة التي تحكمك أما أنا فلا يحكمني شيء لقد نلت كل شيء فيما مضى لأني عرفت كيف احتقر كل شئ لقد كان طموحي الوحيد هو أن أرى أن أبصر الحقيقة التي لا يراها مجتمعك وان أتأمل في جوهر الأشياء لا في مظهرها .

و الآن يا حبيبتي أنى متعب وليس لي قوة تعبت من الأفكار الماجنة تعبت من الآراء والتقاليد الفاسدة تعبت من التعب نفسه .. بددت أيامي ولا أستطيع أن أوجه فكري إلى أي عمل أريد..

العمر يتفتت تحت ضربات الأيام وأنت تنظرين إلي كما اليتيم إلى إنسان غريب لم اعد أتوقع شيئا في هذا المجتمع لكن روحي ترتجف من الخوف والتفكير في الغد ... إنني أنا نفسي لا ادري مالذي وقع لي لقد أصبحت نموذجا شاذا احمل الحيرة و أثير الاضطراب في كل مكان واغرس الغموض في كل نفس التقي بها .

لقد حاول مجتمعك يا حبيبتي أن يشعرني بأني على خطأ ولكن أين السر في خطئي لقد أقبلت مؤمنا بطريقة تختلف عن الناس فكيف تريدين أن ارمي ما قرأت ه وما تعلمته وما آمنت به منذ نعومة أظافري وأومن بطريقة ترضي الناس لأنك سوى جزء منهم . يحاول مجتمعك أن يجعل مني كالمثل الشائع : (لكي تنام مع القطيع عليك أن تنبح مثل الكلاب) يريدون تدميري لا لشيء سوى انك حبيبتي .

أنت يا حبيبتي جزء من هذا المجتمع لأنك كبرت فيه وشربت أفكاره أما أنا فلا .. انك تنطوين على عالم لا يمكنني النفاذ إليه وليس في وسع أقوى العواطف التي بيننا أن تساعدني على النفاذ إليه أنني لا اعرف إلا الشيء القليل عنك من عواطفك ومشاعرك وأفكارك . أنت في النهاية تعبرين لي عن حبك بالكلام فقط لكن الكلمة إشارة ناقصة والروح لايمكن نقلها للآخرين بهذه الطريقة .

ربما يوما اقبل جبينك . وربما عبرت تحت هذا الجبين فكرة لا تخصن ي ,

واتحدت إليك فتثير عباراتي في نفسك ذكرى لازمات غابرة في حياتك لا شان لها بحبي .

لذلك لا أريدك امرأة باردة متهجمة أريدك أن تصفحي على ما بداخلك أن تطلقي العنان لمشاعرك كاملة دون حساب لأي مجتمع فاسد يحلل الرذيلة بالمال والمادة .

إن المرء يولد مرة واحدة ويموت مرة واحدة والموت لا يأتي مرتين فلماذا هذا الهراء الذين تعيشين فيه حين يتحول حبي لك جريمة يعاقب عليها القانون ... الست إنسانا ومن حقي أن أمارس حياتي وان أحب .. أهكذا يقيمني مجتمعك المثالي ذو الأخلاق الحميدة انه سجن مغلق وأنا أموت فيه ؟؟؟؟

حاولي أن تفهميني انك آخر شخص يمكنه سماعي فحين أقول لك أنى احبك فإنها ليست مجرد كلمة وإنما نافذة نطل منها على حقيقتنا وسرنا .

معناها نحن الاثنين جسدا واحدا لا يعزلنا شئ ولا يطل علينا هم المجتمع ليطالبنا بالحقوق والواجبات .

لا أريد أن أشتريك كأنثى لقضاء الحاجة فيمكن أن تحل محلك أي فتاة ليل أنا احبك لأنك أنت أنا وأنا أنت تذوب الأنانية بيننا ونصبح فكرة واحدة وإحساس واحد . العرف والتقاليد الرائجة في مجتمعك تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التي تحتوي على سرنا وحقيقتنا .

احبك ... حتى لا أمضي في زحام الناس وحتى لا أرضي غايتهم فألبس لهم نفسا مستعارة من التقاليد لأعجبهم ..لا أريد أن أكون وأنت معي إنسان يعيش بذات اجتماعية تتحرك بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عارمة .لا أريد أن أكون دمية يحركني الغير ليضحك بحركاتي جمهوره أنا إنسان واحد ولي نفس واحدة وقلب واحد نصفه أعيش به والنصف الثاني تركته لهواك .

قد تعجبين في حقيقتي إنني أحاول أن امسك بوجودي واكتشفه وافحصه أنا إنسان متصل بالعالم بجسدي منفصل عنه بعقليتي لأنك أنت عالمي وأنت حياتي ..

فحين اخضع للعالم تضيع مني حريتي تضيع مني نفسي وأصبح موضوعا وأفقد الشيء الذي يميزني عن كل شيء .

إن حبي لك يعذبني في عالم الاهواء ...اريد ان امتلك حبيبتي واذيبها في داخلي وأشرب شخصيتها وروحها وجسدها أريد أن أحولها إلى (أنا) .

إن كل شيء خاضع للإرادة فادا قررت أن أكون حبيبك فلا شيء سيمنعك لأنك أنت تريدين ذلك والعقل والقلب يبرران لك ما تريدين وليس المجتمع .

الظروف المالية والانتماءات القبلية لا تلغي الإرادة ولا تفصل بين قلبين محبين ولا تمحوا الحرية أبدا .....

إن الزمن في نظري موقوفا وعواطفنا هي الساعة الحقيقية التي تضبط الزمن وتطيله وتقصره ....

أفراحنا تجعل الساعات لحظات ....

والآلام تجعل الأيام سنوات

إن العالم داخلنا يختلف كثيرا عن خارجنا فنحن في سرنا نشاء كما يشاء الخالق ونختار كما يختار الخالق ولهذا جعلنا خلائف في الأرض .

لكن لا أحد يفكر بالموت ولا أحد يؤمن بوجوده .

كانت هذه تساؤلات كتبها جون للورا ... قد تولدت لديه بعدما قاس الأمرين خلال سعيه للزواج منها ... فمعاناته توالت حتى بعد أن صرح لها بحبه وعزم على خطبتها من ذويها ... لكن .. كان للقدر نظرته ...كما كان لوالدة لورا رؤية أخرى في موضوع زواج ابنتها من المدعو جون ... فهذه العجوز الشمطاء –كما تفرض علينا الأحداث تسميتها– لم ترى هدفا في الحياة سوى المال ... ورأت أن زواج ابنتها سيحرمها من ذالك الراتب المغري الذي تجنيه لورا .... ناهيك عن الفوائد التي نالتها مؤخرا من القروض والمنح الموهوبة من المؤسسة المصرفية التي تعمل فيها ابنتها . فلورا كانت الفتاة التي تنفق على أسرتها بسخاء ... لكن العجوز اشترطت أن يمتلك جون منزلا يتنازل عن ملكيته لابنتها بالإضافة إلى عمدها للغلو في المهر ولوازمه .. لأنها كانت تعلم بوضع جون المادي المهزوز ...وتعمدت والدة لورا وضع شروطا تعجيزية لهذا الزواج حتى تكبر العقبة أمامه ويرجع عن قراره ...

لكن محاولات جون في إقناع تلك العجوز باءت كلها بالفشل الذريع ... إنها ليست من ذلك النوع المتفهم ... وخاصة لو تعمقنا في سيرتها واكتشفنا بأن زوجها الأول قد توفي وتركها... وتزوجت من رجل آخر لم يقوى على تحملها فطلقها بطفل لتعاني الفقر والاضطهاد من أسرتها التي رأت في طلاقها عار لايمكن تقبله ...وصارعت الزمن لتكسب قوتها وتربي ابنها ... فاشتغلت عاملة ومسحت غبار الأرفف ... ونظفت المكاتب ...وفكرت في أن تجد لنفسها زوجا ثالثا ... حتى ترحم نفسها من أقاويل الناس ونظرتهم لها كمطلقة ...فالتقت برجل في سن والدها وتزوجته بعدما جعلت منه الخاتم السحري في أصبعها فهي تتقن بعض الأمور في فن السحر والدجل فأنجبت منه ثلاث ذكور ولورا وشقيقاتها الثلاث ... لكن القدر تدخل واختطف الموت ابنها البكر من زوجها الأول بعدما صار شابا مقبلا على الزواج ... وماهي إلا سنوات حتى توفي ابنها الثاني الشقيق الأكبر للورا في حادثة سير نالت من وراءها تعويضا ماديا كبير... إما ثالث أبناءها فقد رمته فريسة للزمن... يجول الشوارع حافيا بعدما فقد عقله وتخبطه الجنون مثل شقيقه قبل وفاته ... لتكتفي بعد ذلك بإغراق رابع أبناءها الذي تبقى لها من الذكور بالغنج والدلال ...

باختصار لقد خرجت والدة لورا العجوز من تجربتها بقناعة تجعلها تحتقر كل الرجال وتكن لهم شعورا بالكراهية والقسوة ... فحتى والد لورا لم يسلم من تلك القسوة حيث كانت تشتمه طوال اليوم وتقوم أحيانا بطرده من البيت ... لتفرض سلطتها الواسعة المطلقة ... كما جنت أيضا عداوات عديدة مع أقاربها وأقارب زوجها الذين لم يكن لهم من مناص سوى قطع صلة التواصل معها ونبذها...

هذه الشخصية جعلت من جون يخط تلك الكلمات لحبيبته لورا موضحا لها عجزه بين سطورها ... فتلك العجوز لم تكتفي برفضه فقط بل عمدت على محاربته أيضا ... ومنعت ابنتها لورا من العمل في مكتبه ...مما جعلها تلتقي به خلسة ... وتفيض دموعها في كل لقاء وتلح عليه أن يخرجها من ذلك الحصار الذي يطوقها ويخلصها من غطرسة والدتها ...

ودامت المعانات ... حتى أقبل ذلك الصباح ... الذي اتخذت فيه لورا

قرارها الخطير... فحزمت حقائبها وكسرت الطوق المفروض على حلمها .. وهربت من البيت ... لقد شعرت أن عشيقها جون سيفلت من قبضتها بسبب والدتها ... كما أن الغيرة وجدت مكانا لها في قلبها حين علمت أنه استوظف العديد من الفتيات في مكتبه وأنهن يطاردنه ليتزوجن به ...

فكما تدخلت قوى الشر لتضع جون على المحك في تلك التجربة المروعة إلى أن قوى الخير تدخلت هي الأخرى لتنقذه من محنته .. فلم تكن الفتيات اللواتي عملن معه في تلك الآونة وخفقت قلوبهن لأجله ...سوى هبة من القدر حتى يصرف النظر عن لورا التي وجد نفسه مدفوعا إليها ... وعن تلك العلاقة التي كان أساس بناءها حب وطلسم ودموع ...

وكان لابد لنا هنا من وقفة بسيطة حتى نتبين بعض المعالم في شخصية جون فقد اجمع الكثيرون ممن عاصروه بأنه كان أثير قلوب النساء والرجل الذي أبعد أثقالا عن النفوس... وبعث الأنوثة في كل روح فتاة يلتقيها بعدما كادت أن تموت ... ولقد تسنى لنا أن نحاور أولائك النساء اللواتي ترك جون في نفوسهن بصمة لا تنسى والتقينا الآنسة (مادلين) التي كانت أول موظفة قبل زواجها في مكتب جون بعد أن غادرته لورا مجبرة من والدتها وسألناها عن ذلك السر الرهيب في شخصيته ... فأجابت :

" لست أدري كيف أصف تلك الشخصية المثالية الذي رسخت في ذهني ... إنه يقيم مملكة رائعة بأسلوبه .. ويتملك لغة تخلع نعليها وتجلس على الأرض ...لغة تكتحل بها النساء ... ويهتز لها الوجدان ... ووجدت نفسي أبوح له بحبي في أول أسبوع عملت معه ... مما دفعه إلى إقالتي من العمل في مكتبه حرصا منه على مشاعري ... ولقد احترمت قراره لما فيه من مصلحة لي ... لأنه كان يبحث عن فتاة يحبها قبل أن تحبه .. ويذوب في عشقها قبل أن تعشقه ... ومما زاد من احترامي لشخصيته تلك المبادرة الرائعة التي أخذها على عاتقه ... حيث كان له الفضل الأكبر في زواجي الحالي ...وهاهو جون يظل القدوة المثالية ... والشمس التي تسطع بنورها فوق سماء حياتنا ..."

اما الانسة جوليا التي حلت محل مادلين في مكتب جون فقد سبقتها دموعها قبل ان تجيب :

" حين التقيت بجون في أول يوم عمل لي في مكتبه ... أخبرني باندفاع مادلين لحبه وظننت أنه من النوع الذي تتملكه نزعة الغرور ... لكن خاب ظني بعدما اقتربت من نفسيته ... واكتشفت ذلك السر الذي جعل من مادلين تستجيب لمشاعرها ... لقد كان جون يرى في رفاهة مشاعر الآخرين ... ومقبل على هذه البيئة بنظرة تسحرنا وتجعلنا نطرق أبواب مملكته ... فالاحترام سيد موقفه والشهامة عنوانه ... إنه ساحر يمتلك قاموسا رومانسيا خاص به ... يعرفه كل محبيه ... ذلك القاموس الذي جعلني اعترف أني ذبت في حبه حتى النخاع ... وعشت في ترانيم أيدلوجيته المفعمة أروع أيامي ... باختصار لقد كان الرجل الذي تتمناه كل فتاة ...لأنه الرجل الوحيد القادر على أن يضع عنوان الأنوثة فوق كتب النساء .."

فكما كان حال **(مادلين)** و**(جوليا)** حيال جون ... كان أيضا حال العديدين ممن تقربوا إليه..وأحبوه... ومنهم (**رانيا)** و **(جوزفين)** و**(كلاوديا)** وحتى طالباته اللواتي تخرجن من مركز تدريبه ... ولا ننسى صديقه الدكتور **(ستيف)** الذي قال عنه :

" إن جون رجل متمرد صاحب مبدأ التغير .... لقد حاول هذا الشاب جاهدا أن يخلع القناع عن الزمن ... ليظهره لنا بصورته الحقيقية الجميلة .... قال لي ذات يوم : " **إنني ياصديقي منذ طفولتي وأنا أجد متعة الألم في التصادم مع البيئة والمجتم ع .. لقد كنت أبحث باستمرار عن وجهي وصوتي بين ألوف الأوجه والأصوات المستعارة فتلك الأقنعة المزيفة لم أحترفها ...كان همي فقط أن لا أكون نسخة متشابهة** "... إنه لا يفرط في نظريته لأنها بكل بساطة وسيلته الوحيدة في الحياة ... فبتلك النظرية كان يمشط شعور النساء فأحبوه ... وغسل قلوب المحرومين فعشقوه ... ومسح دموع الأطفال حتى ناموا على كتفيه ...

لكن الحدث الأبرز كانت تلك المرأة الإستثنائية التي رمى بها القدر فجأة بين يدي جون.. فمنذ أن وقعت عيناه عليها .. أدرك جون أنها لم تكن امرأة عادية ... ولم تكن دمية محشوة بالقطن كالأخريات بل كانت جميلة الجميلات ... إنها **(أنجلا**

مور) احدى زبائن مكتبه ... لقد كانت نسمة صيف وزلزالا مهولا حرك مشاعره ... امرأة خاصة متمردة على تلك البيئة بثقافتها وحسها الأنثوي .. وحين تعرف إليها أحبها حبا إستثنائيا .. وشعرت بحبه هي الأخرى يسري في دمائها ...لقد أحبته (أنجلا) مثلما أحبها جون في صمت مطبق ... وكانا يكتفيان بنظرة تعبر عما يجول في خاطرهما .. وتمنى جون لو يستطيع أن يعجن الأيام ليسترد تلك الكلمة التي منحها للورا حتى يضعها تاجا على رأس حبيبته ... لكن كل شيء محكوم بمقدرات لا يستطيع أحد أن يتدخل فيها ... فهو يجد نفسه مدفوعا لأن يتزوج بلورا ... حيث كان للقدر كلمته وكان أيضا لقوى الشر دور رئيسي في تغيير مجرى حبه ... وهاهو ذلك الطلسم يسري في دمائه ليغمض له عيناه عن كل النساء ماعدا لورا ...

أمام هذه الحقائق ... أدركت لورا الخطر المحدق بعلاقتها مع جون ... واتخذت قرارها ... وهربت من بيت أهلها .... لترمي بنفسها بين يديه ... لقد رأت أنها بفعلتها هذه ستجعل من جون يتخذ قراره هو الآخر ... ويتزوجها بالقوة ...بعدما عرفت كيف تسقطه في شراكها ... وخيرته بين الزواج منها أو أن تقتل نفسها .. ليحمل على عاتقه مسؤوليتها ... وأقنعته أن هروبها ليس سوى تضحية منها لذلك الحب المقدس الطاهر الذي يجمعهما ...وانهار جون أمام تلك التضحية .... ليجد نفسه في ذلك الصباح بين شقي الرحى ...

(11)

*عندما تحكم العرافة ..

بعد أسبوعين على هروبها .... مرت الأحداث وجون يسعى بكل قوة ليجد مخرجا لتلك الأزمة ... ولم يكن له مفر ... فمجريات الأمور تقوده بقوة نحو ذلك الزواج المفروض ... ومما زاد الأمر تشجيعا كان اعتراف والد لورا أمام جون بأنه يوافق عليه كزوج لأبنته ... وانه يرى أن زوجته والدة لورا سترضخ للأمر الواقع بعد الزواج ... وفعلا ... اجتمع جون ووالده مع لورا ووالدها الذي استغل تلك الفرصة حتى يجني مبلغا باهظا من صداق ابنته أمام المأذون الشرعي وماهي إلا دقائق بعد تشاور المضني ...حتى أعلن المأذون في حزم :

((على سنة الله ورسوله ... أعلن بأن جون ولورا ... زوجين للأبد ...))

وفاضت دموع لورا من شدة الفرح .... وتنفست الصعداء بعدما صارت حرم السيد جون ... وأسرعت لبيت خالها الذي كانت تقيم فيه خلال فترة هروبها .. لتبشرهم بزواجها ... وتلملم أغراضها .. حتى تجهز نفسها لذلك الزفاف الذي طالما حلمت به وأقيم حفل الزفاف ... وساهمت أسرة جون وأصدقاءه في حمل عبء الحفل عنه ... وساندوه في زواجه ... وفي محاولة لجمع شمل العائلة ... ذهب والد جون لأسرة لورا حتى يقنع والدتها بحضور حفل زفاف ابنتها ... لكن العجوز رفضت مبدأ المبادرة ... وطردت والد جون ومن معه ... وأنكرت بقسوة أي وجود لابنتها في حياتها ... فكان زفافها خاليا من أي وجود لذويها .. ماعدا والدها وبنات خالها وإحدى زميلاتها في العمل ...

خلال أيام شهر العسل ... وأثناء إقامة العروسين في إحدى المنتجعات السياحية يستمتعون في انسجام ... رن هاتف جون الخليوي ... وفاجأه ذلك الصوت الصارم قائلا :

– هل أنت جون ...؟؟

رد جون في استغراب ودهشة :

– أجل ... من المتصل ..؟؟

قاطعه ذلك الصوت الصارم في لهجة استنكارية صارمة :

– لن تنعم بزواجك على لورا مادمت على قيد الحياة ياجون ... ستكون لورا مجرد زوجة على الورق ..!!

تسمرت يده على هاتفه ... واحمرت وجنتاه من شدة الغضب ... فقد كانت تلك العبارة بمثابة تهديد واضح في حقه ... وهو يعرف صاحبة الصوت جيدا ... إنها تلك العجوز والدة لورا ..

لم يشأ جون بعد تلك المكالمة أن يخبر زوجته التي كانت غارقة في سعادتها وهي تحتضنه صباح مساء ... لكن لو كان على علم بما يدور في الخفاء ... لتغير الأمر كثيرا ... فالشيطان يقتنص الفرصة تلو الأخرى حتى يتسنى له تدمير غريمه جون وزعزعة استقراره ..ووجد في تلك العجوز مآربه ... فأوحى لها ما أوحى ... وبرقت عيناها في شر مستطير ... لتجهز ضربتها ضد جون الذي أسقط كلمتها ... ودمر كيان عرشها الديكتاتوري ...

عاد العروسان لبيت الزوجية بعد عشرة أيام حميمة ... وفي مساء يوم عودتهم طرقت باب البيت شقيقة لورا المتزوجة ... والتي زعمت أنها أتت لتهنئ العروسين وتبارك زواجهما ... لكنها لم تلبث سوى دقائق معدودة في خلوة مع شقيقتها العروس ... وغادرت بسرعة ... لتزف لوالدتها العجوز ذلك النبأ السار الذي تنتظره على أحر من جمر ... فزيارتها لبيت العروسين لم تكن سوى مهمة موكلة إليها .حيث قامت برش غرفة النوم بسائل ممزوج بالطلاسم كما طلب منها وقد أنجزت مهمتها بنجاح ... وتنفست العجوز الصعداء ... تنتظر النتائج في صبر ...

مرت أيام وأسابيع ... وتولدت لجون مشاعر من الحب تجاه لورا ... لقد بدأ يحبها ويسهر على راحتها ... وبرغم أن تلك المرأة (أنجلا) مازالت خالدة في ذهنه إلا أنه جعل منها صديقة مقربة ... وبدورها احترمت زواجه ... وشكرته على صداقته وثقته وإخلاصه لزوجته ...

غير أن حبيبة القلب لورا ... أصابتها حالة مرضية في أيام زواجها الأولى لقد انتابتها حالات من المرض النفسي واضطراب خطير في شخصيتها ... بدا في صورة اختلال شديد في قواها العقلية ... فصارت تثور لأتفه الأسباب .. واستجابت

لعالم وهمي من الهلاوس السمعية البصرية ... ادى بها إلى سلوك عدواني تجاه من أحبتهم في السابق وعلى رأسهم زوجها جون فكانت أحيانا لاتتكلم ولاتجيب .. وتضحك وتبكي بلا سبب ... فتتبذل في كلامها وحركاتها وعاداتها ...وتسقط فاقدة للوعي في منظر مرعب حيث أسنانها مطبقة في شدة على بعضها .. ويديها ملتويتان خلف ظهرها في جمود ...وعيونها شاخصة ...والألم يقطع جسدها وكانت كلما أرادت أن تنتابها تلك الحالة .... تختلق الأكاذيب..و تلقي بالتهم نحو جون والتي لا وجود لصحتها ... فتسبه وتشتمه... ولا تطلب شيئا منه سوى أن يطلقها لتعود لوالدتها ...

أمام هذه الفاجعة ... ظن جون أن زوجته تعاني من مرض نفسي أو وراثي خاصة أن لديها شقيقان في أسرتها تخبط بهما الصرع ... وصبر في معاناة على تصرفاتها التي لم تكن تعي منها شيئا ... فتفرغ لحالتها ... وارتاد بها المصحات والعيادات ... آملا في شفائها ...وعودة الهدوء والاستقرار لحياتهما بعد أن تحولت إلى جحيم ... لكن بعد تلك الجهود أكدت له النتائج أن زوجته لورا لا تعاني من أي مرض عضوي أو نفسي ... وأنها بصحة طبيعية....

لم يكن يدرك جون خطورة تلك الحالة التي تمر بها زوجته لورا .... ولم يكن على علم بحقيقة ما يجري ... فحبيبته يتلبس جسدها الوردي عفريت من الجان تمكن منها بعد تلك المهمة التي قامت بها شقيقتها في خلوتها معها حين رشت ذلك السائل المطلسم ... وهذا العفريت لم تكن له من غاية سوى تفريق لورا عن زوجها . فصار يحيط فكرها بالوساوس ... ويصور لها جون وكأنه عدو من ألد أعدائها ... فتتخبط هي في مرضها ... و يستنزف زوجها ماديا وفكريا ... ويشغله عن أعماله ويحول حياته إلى جحيم لا يطاق ... حتى يحصل الطلاق ... وتكون العجوز والدتها قد انتقمت من غريمها ...واستردت ابنتها من ذلك الرجل الحقير على حد قولها ... والذي ترى أنه اختطفها منها...

وتستمر المعاناة لأيام أخرى ... وتزداد حالة لورا سوءا ... برغم أنها قطعت إجازتها وعادت لوظيفتها.. إلا أنها كانت ترى أن بيت زوجها سجن لا

يطاق فكانت تستغل عملها وتهرب مع والدتها التي كانت تقوم باخذها إلى بيتها ... وتشجعها على عدم العودة لجون ... وكان هذا الأخير يعاني الأمرين بين مرضها وعنفوان والدتها كلما ذهب لاسترجاعها إلى بيته ... فحتى والدها انظم لتلك المؤامرة ضده ... وكان يقسو عليه كلما لجأت لورا إلى بيته ... ويقذفه بتهم لاطائل لها ... والغريب في الأمر أن لورا نفسها كانت تحن على جون ... وتشكو له بعادها عنه وتتوسل له في كل مرة أن يسامحها وأن يأتي لأخذها من بيت والدتها ... وفي كل مرة تعاود نفس الكرة ... فتعود إليه وماهي إلا لحظات حتى تسب والدته التي عانت في صمت حرصا على مشاعر ابنها ... وتشتمه وتتهمه بالتقصير في حقها وتحاول قتل نفسها ... إذا لم يسمح لها بالهروب لاجئة إلى ذويها ...

ذات يوم وبينما كان جون يستمع لآيات من القرآن في غرفة نومه ... استيقظت لورا من نومها فجأة ... وقرنت حاجبيها بحركة تدل على غضب عارم وأغلقت أذينها وهي تصيح بأعلى صوتها ... لقد كان صوت القرآن يصم أذانها ... فبدأت تغلق مسامعها وتبكي في ألم ..

ودنا منها جون في محاولة لتهدئتها ... لكنها دفعت به حتى سقط أرضا ... وانقضت عليه لتضربه بكل قوة بإحدى المزهريات ...فتلقى جون الضربة المؤلمة على كتفه ... وحاول أن يسيطر على وضعها المزري ... لكنها قفزت فوق السرير وهي تصرخ بأعلى صوتها وتتوسل إليه أن يوقف صوت القرآن الذي يخنق أنفاسها ... فتفاجأ جون أمام تصرفها ... واقترب منها في حذر بعدما سقطت فاقدة وعيها ... فأمسك يدها وهو يهمس في أذنها قائلا :

-حبيبتي لورا ... هل تسمعينني ..؟؟ ... هل تشعرين بي إلى جانبك ..؟؟

انتفض جسده في قوة ... وهي تفتح عينيها في شرر ... فسحبت بقوة يدها من قبضته وهي تقول :

- لست حبيبتك أيها الوغد ..!! أطفئ ذلك الصوت المزعج ... إنه يمزقني أشلاء .

تسمرت عينا جون أمام تغير صوتها ونظرتها ... وأخفى ذهوله وهو يخاطبها :

- إنها تلاوة من الذكر ياحبيبتي ... ولا ضير في سماعها ... إنك يالورا ...

قاطعته في صرامة وغضب :

– إنك حقا رجل صعب المراس كما حدثوني عنك ...فأنا لست لورا أيها الوغد ... إنني من عالم آخر يختلف عن عالمكم ... فزوجتك نائمة الآن ولا تدري شيئا عن حوارنا ... إنني لست سوى جني مكلف بمهمة ... وإذا فشلت فيها أقتل ... ولو أوقفت ذلك الصوت ... أعدك أني سأنسحب من جسدها الآن وتسترد زوجتك وعيها..

أوقف جون صوت القرآن في حركة لاإرادية ...وتفاجأ حين استيقظت لورا وعانقته باكية وهي تسأله في لهفة وقد استردت صوتها ونظرتها الطبيعية :

– ما لذي جرى يا جون ..؟؟؟ وما بال كتفك ينزف بالدماء ..؟؟

أجابها جون في هدوء متسائلا :

– أحقا لست على دراية بما حصل الآن ..؟؟

ردت عليه في تساؤل هي الأخرى :

– لقد كنت نائمة ... ولم أعي شيئا سوى ذلك الكابوس المرعب في منامي ... لقد رأيت وكأن قطا أسودا ضخما ينقض عليك في شراسة ...!! مالذي حصل جون أرجوك أخبرني .؟؟

صمت جون للحظة ... وطبع قبلة على رأسها وهو يقول :

– لا شيء يسترعي اهتمامك ... فما حصل لم يكن سوى كابوسا فقط ياحبيبتي ...

في صباح اليوم التالي ... ذهب جون إلى مكتبه ... فدخلت عليه سكرتيرته (جوليا) لتجده غارقا في دوامة فكرية ... فبادرته بالحديث :

– يبدو لي أن ملامح الإرهاق والتعب بدت على وجهك في الآونة الأخيرة ..؟؟

تنهد جون وهو يطفئ سيجارته في هدوء ... وأشعل واحدة أخرى ثم غرق في تفكير عميـــــق ..

تنحنحت جوليا ... وخيل إليها أن جون لم يعي وجودها ... ثم أردفت قائلة :

– إنني حقا آسفة لمرض زوجتك لورا ... واعلم أننا نعيش معاناتك بقلوبنا ... لقد عملت مابوسعك في سبيل شفائها ... لكن الطب يقر بأن صحتها جيدة وأنها لاتعاني من شيء ..

التفت إليها في نظرة ثاقبة وبعينين شبه دامعتين وهو يقول :

– تلك هي المصيبة يا جوليا ... فما وقع لي بالأمس .. شتت أفكاري وتركني دون نوم ليلة كاملة ... وأنا أفكر جاهدا لأجد تفسيرا مقنعا لما يحصل معي ...

أطفئ سيجارته حتى لا يزعجها دخانه ثم بدأ يروي لها ما حدث معه بالأمس ...وكيف قامت لورا بجرح كتفه ... واخبرها بذلك الجني الذي تأثر بسماع القرآن ... وحاوره بكل برود ..

لم تستغرب جوليا لقصة جون ... لكن تأثير الألم بدا واضحا عليها ... وانظم لحديثهما صديقه الدكتور ستيف الذي أتى إليه في سرعة بعدما اتصل به جون وأخبره بتلك الواقعة ...

خيم صمت رهيب على المكان ... قطعه الدكتور ستيف قائلا :

– نحن لا نشك في كلامك سيد جون ... كما لا نشك أيضا في ثقافتك ووعيك وعلمك ... فالعلم يلغي تلك الأشياء ... وكذلك الطب النفسي ينكر وجودها ... إن التقارير الطبية تثبت لك كل يوم أن زوجتك لورا لا تعاني من أي مرض نفسي أو عضوي ... لكن ينقصك ذلك اليقين البسيط الذي كنت دوما تتفادى الاعتراف به ... عليك ياجون أن تؤمن بذلك العالم المظلم ... الذي تناقلته الأديان وأكد لنا وجوده القرآن ...

أومأ جون بحركة تدل على عدم الاقتناع وهو يقول :

– إنك يا ستيف تجعلني أشك في كل ما قرأته وتعلمته طوال حياتي ... إن حالة زوجتي تدفعني إلى الجنون والغرابة ...وها أنت تجبرني للدخول لعالم ليس له وجود .

قاطعه الدكتور ستيف بصرامة :

– وكيف تفسر ما وقع معك بالأمس ...؟؟؟ هل كانت لورا تمثل عليك ..؟؟ وما الغاية وراء هذا التمثيل ..؟؟ لقد عشنا أحداث علاقتكما قبل الزواج ... ورأينا كيف كانت لورا تقاتل باستماتة حتى تصير زوجة لك ...وهاهي الآن تطلب الطلاق دون إرادة منها ..ولا تطيق حتى مجرد النظر إليك ... فهل لك أن تفسر لي ما يحدث ..؟؟

لم يستطع جون الرد على سؤال صديقه ستيف ... إنه يعجز عن إيجاد تفسير

منطقي للاحداث ... والتفت إلى جوليا في محاولة لان يجد رايا مغايرا لديها ... لكنها أردفت قائلة :

– الحقيقة يا سيد جون ... أن معاناتك ليس لها سوى تفسيرا واحدا ... ورأيي من رأي الدكتور ستيف ... فزوجتك لورا حالها حال العديدين في مجتمعنا ... وقد عرفت بعضا من تلك الحالات التي ثماتلت للشفاء بعدما عجز الطب والعلم عن فك أسرارها .

أحنى جون رأسه في شرود وهو يتمتم :

– يا إلهي ... مالذي يحدث ..؟؟ إنني أجد نفسي أمام عالم من الغموض أجهله تماما .

دنى منه الدكتور ستيف وهو يخاطبه في رأفة :

– أعذرني يا سيد جون ... إن هذا الغموض سيزول حين تراجع إيمانك وتقويه ..وبما انك على يقين بوجود الله وقدرته في هذا الكون ... عليك أن تؤمن أيضا بوجود عدو البشرية ... وقوى الشر التي حذرتنا منها تعاليمنا السماوية ... ورأيي من رأي الآنسة جوليا ... عليك أن تبحث بجدية في هذا الموضوع ... وتقوم بزيارة أحد الفقهاء ممن لهم دراية بأسرار ذلك العالم الغامض ... وصدقني ستجد التفسير ..

لم ينبس جون بعد ذلك الحديث ببنت شفه ... ونهض من مكتبه ... وتناول مفاتيح سيارته ... وغادر في صمت ... تاركا وراءه ستيف وجوليا في حيرة تامة ... وهو يقود سيارته .. كان سيل من الأسئلة المحيرة تنهال على فكره ... وتزيد من التمزق والغموض اللذان يكتنفانه ... وصار يتساءل في صمت ...مالذي جعل من ذلك الصوت الذي خاطبه بلسان زوجته والذي يزعم أنه جني من عالم آخر... يتألم تحت صوت القرآن ...؟؟؟ وكيف وعده أن يغادر جسدها ويردها لوعيها بعد أن يوقف جون صوت القرآن ... ثم وفى بوعده ... ؟؟؟ وما علاقة القرآن بذلك العالم الخفي ...؟؟؟

وصارت الأسئلة تتوالى عليه .... حتى أوقف سيارته ... ودخل إلى أحد المساجد ... ووقف بين يدي ربه عز وجل بعدما أحسن وضوءه وخشوعه ... فأحس بشعور غريب يكتنفه ... لقد شعر جون بشيء من السكينة تسري في جسده .. وتزيح همومه .. وكيف لا وهو في ضيافة الرحمن الرحيم ... رب العالمين ...

****

(12)

*من عمق الإيمـــان ..

ما إن فرغ جون من صلاته ... حتى مسح دموعه التي غلبته ... واتخذ ركنا في ذلك المسجد الذي وجد وكأنه قلعة حصينة من رياح الأوهام التي تجتاحه ... ثم شرع يتلو القرآن بصوت مصبوغا بالدموع والخشوع ... أما في الركن الآخر فكان يجلس شيخا في الستينات من عمره ذو لحية زادته وقارا وأضفت عليه نورا من الإيمان ...ولم يكن ذلك الشيخ سوى إمام المسجد وأحد العلماء الزاهدين اللذين تمسكوا بكتاب الله .. واقتدوا في كل أمورهم بالرسول الكريم ...

توجه الشيخ نحو جون في هدوء .. ثم جلس أمامه وقال له :

– السلام عليكم وحمة الله وبركاته ... مالي أراك بني وقد غرقت عيناك في بحر من الدموع ... وارتسمت عليك ملامح الحزن والهموم .. منذ دخولك إلى المسجد...؟؟؟

أجابه جون بعدما بادله التحية و تمتم في خفوت :

– لقد عشت أيها الشيخ الوقور سنوات في ضباب العلم ... وتلقيت تعاليم الفكر على أيدي أساتذة ومعلمين ... فنلت الشهادات ... التي قادتني إلى الإيمان بوجود خالق قادر ومقتدر ... وقدمت لي الفكرة الكاملة عن الله .. ولكنها لم تقدم لي دليلا واحد على وجود تلك المملكة الغيبية والتي يشير إليها معظم البشر بمملكة الشيطان ... فالقرآن يقرها و السنة النبوية تأكدها.... فكيف تفسر لي أيها الشيخ هذا التناقض بين الدين والعلم ...؟؟؟

رد الشيخ في هدوء بعدما اعتدل في مجلسه :

– إن العلم الحق يابني ... لم يكن أبدا مناقضا للدين بل أنه دال عليه ومؤكد لمعناه ... فنصف العلم هو الذي يوقع العقل في الشبهة والشك ... وخاصة إذا دارت المعركة في عصر يتصور فيه العقل أنه كل شيء ...أما عن مملكة الشيطان فلو تسنى لك يوما أن تتدبر كتاب الله الذي بين يديك لوجدت قوله تعالى في سورة الأعراف :

" يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ"

وهذا أكبر دليل على وجود الشيطان ومملكته من عهد والدنا آدم .. وأن الله

تعالى بين لنا في وضوح لتلك الفتنة التي اخرجت ابوينا من الجنة ... كما ان الاية الكريمة تأكد لنا أن الشيطان وأتباعه من الجن من يروننا من حيث لا يمكن للإنسان أن يراهم ... وتلك مشكلة العلم الذي يؤمن بالمنظور ولا يؤمن بالمحسوس ..

ويقول الله تعالى أيضا في سورة الإسراء مخاطبا لذلك الشيطان :

"واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ " وهذا دليل آخر أن الشيطان يشارك حياة البشر وأموالهم وأولادهم ويجلب على من استطاع بخيله ورجله... لكن كيده ضعيف أمام المؤمن الصادق الذي يتق في وجود الله وهو القائل سبحانه في سورة الذاريات : "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "

أحس جون بالإعجاب والدهشة والحكمة أمام كلمات الشيخ التي صارت تنير قلبه وتروي ظمأه .... فكيف سمح لنفسه أن يفتقر لمثل هذه الصيحة الدينية التي بدأت تغتال الغموض في نفسه ... فأي بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشرى ...؟؟

واعتدل في مجلسه بعدما شعر بالارتياح لذلك الشيخ الوقور فسأله قائلا :

– أتمانع أيها الجليل أن تجيب على بعض تساؤلاتي ...فيبدو لي أن لديك ما يأنس وحشتي ؟

أجابه الشيخ :

– تفضل يابني ... فالفقه ليس حكرا على أحد .. وأنا على يقين بإذن الله أن حوارنا سيكون له الفضل النافع ... بما رزقني الله به من علم ..

وروى له جون تفاصيل تلك الواقعة التي وقعت معه بالأمس وفض قلبه وانسكبت دموعه ولما فرغ منها تساءل عن الرابط بين القرآن والجان ...فرد الشيخ قائـــــــلا :

– اعلم يابني .. أن البلاء يقرب بينك وبين الله ويعلمك الدعاء ويذهب عنك الكبر .. واعلم أنك لست الوحيد في البلاء , فما سلم من الهم أحد , وما نجا من الشدة بشر .. واعلم أن الشدائد تفتح الأسماع والأبصار وتحيي القلب وتردع النفس وتذكر العبد وتزيد الثواب ... أما الجن يابني فعلاقته بالقرآن واضحة وبسيطة ... فكلما سمع

الشيطان شيئا من القران او الاذان .. نكص على عاقبيه وفر هاربا ...لان القران انزل للعالمين كافة سواء أكانوا إنس أو جن ... فقد ذكر الشيطان في القرآن 56 مرة ... وذكرت الجن والجان 25 مرة ... مما يدل على وجود مملكة الشيطان وأعوانه من الجن بدليل قاطع ... وستجد في قصص القرآن والأحاديث النبوية ما يؤكد ذلك.

سئل جون الشيخ مرة أخرى :

–وكيف تفسر أيها الشيخ ما وقع معي بالأمس ..؟؟

أجابه الشيخ بكل ثقة وهدوء :

– " أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ " ... اجعل هذه الآية نصب عينيك وتوجه إلى البارئ عز وجل بنية صادقة لأنه القادر على صرف الأذى وكشف الضرر ولا يعجزه شيء في السماء والأرض ... ثم عليك يابني بالحمد والثناء لأنه سهل عليك سبل العلاج بالقرآن الكريم والرقية النبوية والأذكار والأدعية ...

إن زوجتك المسكينة تعاني من مس شيطاني أو عقد لها سحر للتفريق بينكما والسحر يابني ماهو إلا لون من ألوان استخدام الشيطان وتسخيره والتعاقد معه ... وفيه يكلف هذا اللعين من قبل النفوس الفاسدة بأداء مهام شريرة مرتبطة بمكان أو زمان أو شخص معين ... فتبدو على المسحور حالات غريبة ... كأن ترى المرأة زوجها على غير شكله الطبيعي .. ويحدث لها نفور شديد منه ..يتسم بالكراهية .. فتطالبه بالطلاق ... وتظهر عليها بعض العلامات المعينة ..كشخوص البصر ... وتغير اللهجة والقوة ... وتنتابها حالة من الاكتئاب والشعور بالضيق ... فيتشنج جسمها وتفقد وعيها وتقرض على أسنانها ... وأحيانا يتكلم على لسانها جني مكلف من قبل شيطان آخر أقوى منه بتنفيذ هذا الإيذاء ... فإن لم ينفذ هذا التكليف فإنه يقتل قتلة بشعة أمام زملائه الذين هم من أمثاله ليكون لهم عبرة في الإيذاء حتى لا يتراجعوا عن المهام الشريرة المكلفين بها من قبل الساحر ... لذلك فإن علاج السحر يحتاج صبرا أكثر وبرنامجا أطول .

فإن تأكد لك ذلك بني ... أو حضر الجني على جسد زوجتك وأخبرك انه خادم للسحر فعليك أن تقوي إيمانك .. وتحسن الظن بالله وتوجه بصدق إليه ... واقرأ على

جسد زوجتك ايات الرقية الشرعية ... لما لها من ثاتير على الجن ... فإما ان يخرج إن كان ضعيفا ... أو يتألم كما تألم أمامك بالأمس حين سمع صوت القرآن ... سيحادثك و يتوسل إليك ... عندها قم بمخاطبة ذلك اللعين بتبات .. كأنك تخاطب إنسانا مخطئا ظالما لنفسه ... فتعرف عليه أولا .. ثم اسأله عن اسمه وديانته وسبب دخوله في الجسد وهل هو مكلف من ساحر أم لا ..؟؟

بعد ذلك يأتي دور الإرشاد وبيان حرمة ما يصنع وتخويفه من عقاب الله وعذابه وإصلاح ما وقع إن تبين لك انه جني مسلم ... فإن كان كافرا اعرض عليه الإسلام ... فإن رفض فلا إكراه ... ثم أأمره لكي يخرج من غير أذى .. ولا تسم ح له بالخروج من العين أو الإبط أو البطن .. ولكن من أصبع اليد أو القدم ... فإن رفض الخروج اقرأ عليه آيات الرقية والعذاب مرة أخرى .. ولا تتأثر بما تراه عيناك ... حتى يستسلم ويستجيب لأمر الله تعالى ...و ستجد قدرة القرآن العجيبة في تدمير الشياطين فكيف لجني مخلوق ضعيف أن لا يخشع قلبه ويتصدع ... والله عز وجل بقائل :"لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " وهو القائل أيضا : "وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" ...

عليك أن تتجنب السحرة ... وأن لا ترتاد الكهنة البطرة ... وكن دوما على طهارة وتوكل على الحي القيوم .. الذي يقول للأمر "كن فيكون" ..

فتمسك يابني بتلك الرحمة ... واجعل منها أنيس غربتك ...وجليس وحدتك وسلاحك الذي تقاتل به جيوش الشياطين..." فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً"... فأذاهم للإنسان خطير ... وبأسهم شديد ... لكن مكرهم ضعيف ...

واعلم أن الله عز وجل شأنه قال:

"قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى "

ومادام الله في الوجود .. معناه لست وحدك ... وإنما تحفك العناية حيث سرت ... وتحرسك المشيئة حيث حللت .. معناه .. لن تذهب دموعك سدى ... ولن يمضي الصبر بلا ثمرة ... ولن يكون الخير بلا مقابل ... ولن يمر الشر بلا رادع ... ولن تفلت الجريمة بلا عقاب...وتيقن أن الدنيا دار محن وبلاء ومنغصات وكدر فاقبلها على حالها واستعن بالله ..

ثم نهض الشيخ في هدوء ... وربت على كتف جون في حنان وهو يقول :

– تذكر يا بني ... كم أزمة مرت بك ونجاك الله منها ، حينها تعلم أن من عافاك في الأولى سيعافيك في الأخرى ...وحسبنا الله ونعم الوكيل يكشف عنا الكروب, ويزيل عنا الخطوب, يغفر لنا الذنوب, يصلح لنا القلوب, يذهب عنا العيوب. . فلا تقنط من رحمته ... لأنه عز وجل لم يغلق بابه, لم يسدل حجابه, لم تنفد خزائنه, لم ينته فضله, لم ينقطع حبله...فكن مؤمنا شجاعاً قوي القلب ثابت النفس صاحب همة وعزيمة , ... لأن الله قوي يحب الأقوياء ...

غادر جون المسجد بنفس يملأها الصفاء والسكينة ... لقد أفاقته هذه الرؤيا الدينية من ذلك الضباب الذي كان يعيشه في عصر المتاهات والتزييف ... وجاءته الصحوة الصادقة التي تقوده إلى الحق... في لحظة من أثمن اللحظات ...

****

(13)

*جنـــــود إبليس..

بعد تلك اللحظة الإيمانية .... وفي طريق عودته ... عرج جون على إحدى المكتبات الإسلامية ... وانتقى منها تفاسير ومراجع دينية ... لقد كان يريد أن ينفذ إلى ذلك العلم الذي طالما أهمله ... واحتاج الأمر إلى ليال من الغرق في تلك الكتب ... وليال من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس وإعادة النظر ... ثم إعادة النظر ... ثم تقليب الفكر على كل وجه ليقطع الطريق الشائكة أمامه ...

لم يكن الأمر سهلا أو لينا ... إنه في زمن تعقد فيه كل شيء .. وضعف صوت الفطرة حتى صار همسا ... وارتفع صوت المنطق حتى صار لجاجة وغرورا وبهذا العقل المادي بدأت رحلته في عالم العقيدة ... وتولدت لديه تلك الفطرة الإيمانية التي فتحت عيونه على مملكة الشيطان وأعوانه ... ولو أنه أصغى منذ البداية إلى صوت الفطرة وترك البداهة تقوده لأعفى نفسه من عناء الجدل وقادته إلى الحق ... لكنه كان من ذلك النوع الذي يحتاج إلى أدلة دامغة على وجود قوى الشر ... وهاهو ذلك الجني الذي يتلبس جسد زوجته لورا يفتح له الباب على مصراعيه ... ليدخل في حرب مستميتة مع الشيطان ...

مر على زواجهما قرابة شهر ونصف ... وحالة لورا مازالت كما كانت عليه دخل جون لغرفة نومه ... وما إن وقعت عيناها عليه حتى بدأت تسبه وتشتمه وتهدده بأنه سيأتي يوم تقدم فيه على الانتحار إذا لم يستجيب لمطلبها ويطلقها ... لم يكترث جون لكلامها وإنما انزوى في ركن من غرفته وأخذ مصحفا .. وبدأ يتلو على مسامعها آيات من القرآن ... فقد كانت نظراتها الشرسة وحركاتها تدل على ذلك الجني المتخفي وراء جسدها ...

وهاجت لورا في عنف ... واستلت كرسيا لتضرب به جون حتى يتوقف عن القراءة .. لكنها عجزت ... أو بالأحرى عجز ذلك الجني عن إيذائه .... فصارت تحطم كل شيء أمام ناظرها ... حتى سقطت فاقدة وعيها وبدت عليها علامات تنذر بوجود ذلك الشيطان ..

حانت اللحظة التي كان جون في انتظارها ... فوضع جسد لورا المتشنج برفق على السرير ... وشرع يتلوا آيات الرقية التي حفظها عن ظهر قلب ... وماهي إلا دقائق حتى كلمه ذلك الجني بصوت أقرب إلى البكاء :

– مالذي تريده أيها الوغد الحقير ...!!

– من أنت وما الذي أتى بك إلى هذا الجسد ..!!

– لا شأن لك ... دعني وشاني وإلا سترى مني ما لا تحمد عقباه ..!!

– سنرى من الذي سيستسلم أمام كتاب الله ...!! ..... واستأنف جون تلاوة الرقية .

– أرجوك ... توقف أتوسل إليك ... إنني أتألم بشدة .... أعدك أني سأخبرك بما تريد ..!

– حسنا إذن ... من تكون ..؟؟ ومن أي عالم أنت ..؟؟ وماهي ديانتك ..؟؟

– إنني جندي مسيحي من جنود إبليس ... مكلف بمهمة التفريق بينك وبين زوجتك وإن لم أنفذ مهمتي سوف أقتل على يد شيطان آخر أقوى مني ... ولن تفلح في إيقاف مهمتي لأنك ستفتح على نفسك جبهة من الصراع المرير ...

– لن تهددني أيها اللعين ...ولن أخوض معك في حوار لا جدوى منه ... قل لي هل تمانع في الدخول إلى دين الإسلام ..؟؟ أم انك تريد أن تتفتت تحت ضربات القرآن وآيات الرحمن ...؟؟

– لن ادخل في دينك أيها الوغد ... وسأظل في جسدها ... وأعذبك حتى تنهار وتطلقها .

– إنك لم تترك لي الخيار أيها الملعون ... وسنرى إن كنت ستبقى أم ستذهب في غير رجعة ...

وأخذ جون يقرأ بصوت عال آيات العذاب ... والجني يتألم ويتوسل ... حتى انتفض جسد لورا في عنف وارتعدت قدمها اليمنى...وتوقف كل شيء ... فساد الهدوء والدهشة ... قطعته لورا بعدما أفاقت لترى جون و أسرته الذين امتلكتهم الدهشة لما رأوا ... يحيطون بسريرها ... ويضمونها إلى صدورهم في حنان ... وما إن تباينت لها ملامح جون حتى عانقته وهي تجهش بالبكاء والدهشة ... فتلك ملامح

الرجل الذي احبته طوال عمرها ... والتي كانت مخفية عنها بسبب ذلك الجني قرابة الشهر والنصف ...

لم يشأ جون أن يخبر زوجته بما حصل .. حرصا على مشاعرها ونفسيتها ... لقد تبينت له الحقائق ... والشيخ الجليل صادق في أقواله ... لقد أدرك بالتجربة والمعانات طريق الحق فهاهو كيد الشيطان يتهاوى أمامه ... وبرغم عنفوانه المخيف ... إلا إن كيده ضعيف ..

مرت يومين على تلك الحادثة ... ولم تسجل أي حالة غير طبيعية في شخصية لورا بعدما زال منها الألم ... واستنار وجهها ... وزادت لهفتها وحبها لزوجها ... فأخبر جون والدها .. وزف له نبأ شفاءها ... فنقل الخبر بدوره لوالدتها العجوز ... التي استشاطت غيضا بعدما علمت أن ابنتها شفيت من سحرها ... ولم يكن لها من أمل سوى تلك العرافة الذي يشهد الكثيرون على قوتها وقدرتها في التفريق بين الأزواج ...فذهبت إليها وطلبت منها تلك العرافة أن تتحايل على ابنتها حتى تحضرها إليه ... فتطعمها بعض الطلاسم ...وتثبت سحرها وتفرقها عن زوجها.

وهكذا ... ارتدت العجوز قناع الطيبة المزيفة ... وذهبت لابنتها لورا في مقر عملها .. وأوهمتها بأن جون ينوي طلاقها لأنها لم تظهر عليها بوادر الحمل وأن صديقتها العرافة قد أخبرتها بذلك .. وطلبت منها أن تذهب معها لزيارة تلك العرافة حتى تعطيها وصفة تجعلها تحمل من جون وتنجب له شأنها شأن الأزواج الآخرين ... وبدافع السذاجة والخوف وضعف الإيمان ... ذهبت لورا إلى تلك الساحرة صحبة والدتها وهي على ثقة بالنتائج دون أن تدري أنها وقعت في شرك السحر ...وكيف لا وقد جربت طلاسمها على جون في السابق مما دفعه إلى الزواج دون إرادة منه ؟؟

عادت لورا لبيتها متأخرة ... وسألها جون عن سر تأخرها ... فأخفت عنه موضوع والدتها وأوهمته أنها عرجت على بيت أسرتها حتى تطمئن عليهم ... وعند المساء بدأت تظهر عليها أولى أعراض ذلك السحر الذي أكلته ... فصارت تتقيأ وتشكو ألما في رأسها ومعدتها ..ظن جون أنها البوادر الحمل الأولى بدت على زوجته فأسرع بها إلى المستشفى ... لكنه صدم لنتيجة الفحوصات السلبية ...والتي تؤكد

ان لا وجود لذلك الحمل المزعوم ...وزاد من صدمته وشكه ان سبب التقيؤ خلطة سائلة مبهمة عجزوا في إخراجها ... وأثناء طريق العودة كان جون غارقا في شكوكه ... حتى وصل إلى بيته ... فحاور لورا في اهتمام :

– عليك أن تعلمي يا عزيزتي أني مؤمن بقدر الله ... وأن البنين هبة منه يهبها لنا متى يشاء .. وإيماني يجعلني لاأشك بقدرته في أن يمنحنا يوما ما طفلا يكون الثمرة لحبنا وزواجنا .. لكن علاقتنا بدأت تجتاحها رياح الكذب وتنذر بخرابها ... فأرجو أن تخبريني عن السبب الحقيقي لزيارتك اليوم لبيت أسرتك ... وعن تلك الخلطة المبهمة التي سببت لك هذا التقيؤ ..؟؟

ردت لورا عليه في خفوت بعدما اعتراها ضيق شديد :

– لا أخفي عليك جون ... لقد طلبت مني والدتي أن أرافقها في نزهة لإحدى الحدائق وشعرنا بالجوع ... فأكلنا بعض الساندويتشات التي كانت سببا في ما جرى لي من حالة تسمم ...

قاطعها جون في صرامة :

– أنا لست ضد الزيارات العائلية أو النزهات ... لكن كان من المفترض أن تتصلي وتستأذني مني ... ألست زوجك ...؟؟ ثم أخبريني بما انك اتصلت بوالدتك عند وجودنا بالمستشفى ...هل تعاني هي الأخرى من أعراض الصداع والتقيؤ بعد تلك الوجبة في النزهة ...؟؟

لم تجب لورا على سؤاله ... فقد وجدت أمرها سيفتضح أمام حدسه وفراسته ... وهي مجبرة بالرد عليه ... فبدأت تبكي بشدة ... واختلط بكائها بصراخها ... وهمت فاقدة وعيها ... والتقطها جون قبل أن تسقط على أرض الغرفة ... وما إن أمسكها حتى فتحت عيناها والشرر يتطاير منهما .. ودفعته عنها بكل قوة ... ورمت بجسدها على السرير ... وهي تضحك بعينين شاخصتين ... وأسنان مصطكة ... دون حراك ...

لقد عادت إليها تلك الأعراض مجددا ... وبرقت عينا جون ... بعدما صدق شكه ... وتيقن حدسه ... وهاهي علامات الجني تظهر على جسدها مرة أخرى ... فعزم أمره ... وتوكل على ربه .. وما إن شرع في تلاوة الرقية حتى خاطبته

وقد تبدل صوتها :

– لقد كشفت أمري بسرعة. يا جون.. ما كنت أظنك بهذا الذكاء أيها الوغد...؟؟

– إن هذا الوغد الذي أمامك سيجعلك تندم على عودتك إلى زوجته أيها اللعين ..!!

– رويدك سيد جون !! فأنا لست ذلك الجني الجبان الذي قتلته أول الأمس ... إنني جندي من صنف آخر لا يستسلم لتلاوتك القرآنية أبدا ...لأني بكل بساطة لست وحدي في ضيافتك .. وإنما يصحبني مجموعة من زملائي الذين جاءوا لينتقموا لصديقهم الذي قتلته...وسيذيقونك شر العذاب ... طلّق زوجتك ياجون ..!! طلقها فأنت لست ندا لنا ...

– لن أستجيب لطلبك أيها الوغد اللعين ... ولن تزعزع عقيدتي وإيماني قيد أنملة ...

– خذ بالنصيحة ... ولا تزد من عنادك الذي سيهدمك ...إننا جنود إبليس الأقوياء وعددنا يفوق الآلاف وهم يترصدون لك في كل زمان ومكان ... إننا كتيبة لملك من ملوك الجان . .. ألا تفهم ..؟؟؟ إننا كتيبة جنود ولن تقوى على قتالنا ...

– مادام الأمر كذلك فقل لملككم أن كيده ضعيف ... وتهديده سخيف ... وسنرى من الأقوى ...

وشرع جون يقرأ آيات الرقية مرة أخرى ... وبدا له صدر لورا يتقوس بقوة ... وذلك الجني يصرخ في الم ويتوسل له أن يكف عن القراءة ... وماهي إلا لحظات حتى انهار الجني وأعلن استسلامه ... لكن جون ومع موجة الغضب التي تجتاحه لم يتوقف عن القراءة أبدا ... حتى مات ذلك اللعين بين يديه ...

وتكرر ذلك المشهد المأساوي أياما أخرى ... وليال عديدة ... حتى وصل عدد الجان الذين قتلهم جون وطردهم برحمة القرآن إلى ثمانية عشر جني ... ومع ذلك لم يتسلل اليأس إلى قلبه ... ولم يفقد عزيمته ... لقد كان يصر على إتمام حربه ضد جنود إبليس ... من اجل أن يسترد حبيبته لورا من مخالب الشر ...

وكان لتلك المفاجأة هول على نفسه ... فقد كانت تزوره في بيته والدة لورا ورأت بأم عينيها حالة ابنتها وما يجري بين جون وبين قوى الشر ... لكنها لم تحرك ساكنا ... بل على العكس تماما ... فقد كانت البسمة والشماتة تعلو وجهها ...

ولم تكتفي بذلك فقط بل عمدت على اتهام جون انه وراء السحر المعقود للورا ... وكانت ترغمه بشدة بأن يطلق ابنتها في كل مرة يحاول جون أن يطلب منها دعمها لشفاء ابنتها...

غير أن العجوز كانت ترى في إصرار جون وإيمانه تهديدا لمآربها الشريرة وببعض النصائح والحيل المزيفة التي أخفتها وراء قناع الأمومة... عمدت والدة لورا العجوز بدافع شيطاني إلى جعل ابنتها تهرب من بيت زوجها خلال حلول شهر رمضان ... الذي يعرف بأنه شهر المغفرة وشهر تضعف فيه الشياطين ... وكان ذلك ما يخيف العجوز ...

أما جون وأثناء خوضه لتلك الحرب الخفية المعلنة .. ترصدته قوى الشر ... وعمدت إلى تحطيمه بكل ما أوتيت من قوة ... لقد عجزت تلك القوى في إيذائه جسديا فتسلطت الشياطين على عمله ... ودفعوه لأن يوقف نشاطاته المهنية بعدما مني بخسارة فادحة في مكتبه ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ... فقد خربوا بيته وغرسوا بذور الشقاق بينه وبين أسرته ... ودمروا سيارته التي انفجر محركها لمرتين بعد أن هددوه بذلك على لسان زوجته ... وأفلسوا رصيده المالي ... وعمدوا إلى إحاطته بعزلة عن الآخرين ... تلك العزلة التي ساهمت فيها لورا بوعي وبغير وعي منها ... فقد كانت تتصل بمعارف جون وأصدقاءه ... لتوهمهم أن هذا الأخير قد تغيرت طباعه وصار يضربها ويغتصب حقوقها كزوجة... ويستنزف راتبها ..

والغريب في الأمر أن بعضا من تلك النفوس الضعيفة ... غرتهم الشياطين.. فصدقوا كلامها .. وانحازوا لها ... وقطعوا صلتهم بزوجها جون ...

في ذلك الشهر الكريم ... حاول جون أن يجرب مبدأ التفاوض ... فأرسل أناس عديدين لبيت لورا ... حتى يتصلح الموقف ... وتعود زوجته ... لكن والدتها وقفت حجر العثرة في طريقه ورفضت أن تعود ابنتها إليه .. وانه لا مجال للتفاوض في أمر محسوم بالطلاق ..

كانت لورا خلال وجودها في بيت والدتها تمارس عملها وحياتها بشكل طبيعي .. ولم تظهر عليها أي أعراض لذلك السحر المخفي ...فقد حدث التفريق

بينها وبين جون ... وعمدت الشياطين إلى الراحة بعض الوقت ... حتى تستجمع قواها .. لتخوض حربا أخرى تكون أشد قسوة ....

وفي أواخر أيام الشهر الكريم ... اتصلت لورا بزوجها جون ... واعتذرت كعادتها عما بدر منها ومن والدتها ... وأخبرته أنها حامل في شهرها الثاني وأنها سترزق بطفل منه...

وظن جون أمام هذا النبأ السار ... أن والدتها ستقنعها مشيئة الله في خلقه ... وأنها ستعيد زوجته إليه بعد علمها بحملها .... خاصة وأنهم في شهر الغفران والمغفرة ...

لكنه مني بخيبة أمل كبيرة ... فبعد أن وجد وسيطا من أهل لورا والذي يعتبر خالها الأكبر في عائلتها ... جاءه ذلك الوسيط ليعلن له رفض والدتها لمبادرة العودة حتى ولو كان في أحشاء ابنتها مائة طفل ... ونصحه بالطلاق كي يتجنب مالا تحمد عقباه ...

لم يكن جون من ذلك النوع الذي يهاب ... ولم يكن له من درب آخر سوى اللجوء إلى العدالة ... فقام برفع دعوى قضائية تلزم زوجته الرجوع إلى بيت الزوجية خاصة وأن لورا كانت تلح عليه أن يسعى جاهدا لاسترجاعها حتى تعيش حياتها في ظله .. وأن لا نية لها في الطلاق منه ... وان والدتها تسعى للنيل من سعادتهم واستقرارهم ...

وحكمت المحكمة في أول جلسة ... وصدر حكما يلزم لورا بالعودة لبيت زوجها دون تدخل أهلها ... وتلقت العجوز الصفعة على وجهها وهي تراقب ابنتها التي تلم حاجيتها وتتطلع في شوق للعودة إلى حبيب قلبها ووالد طفلها الذي ينمو في أحشائها ...

عادت لورا لبيت جون ... لكنها لم تعد هذه المرة لوحدها .... وإنما عادت بصحبة أقوى الشياطين الذين تشهد على قوة شره مملكة الجن بأسرها ... إنه ذلك الملك الذي أرهقه القتال مع جون .. وزعزع له عرشه ... وقتل له جنده ... ولم يجد من وسيلة أخرى سوى أن يلاقي غريمه وجها لوجه ....

فالسحر لم يزل أثره ... ولم تضعف قوته ... ونجاح جون في استرداد

زوجته ... يشكل طعنة في حق ذلك الملك الشيطاني ... الذي اقسم امام اقرانه بعدما أكد لملك ملوك مملكة الجن إبليس ... أنه سينتقم من جون أشد انتقام ...

****

(14)

*صراع مع الملك جفريس..

بعد غياب دام قرابة الشهرين ... عادت لورا إلى زوجها ... ومنذ أول يوم لها في بيته انزوت في غرفتها ... وكان على جون أن يتأكد من حملها ... خوفا من أن يكون الحمل كذبة محبوكة منها أو من شياطينها ... وجاءت النتائج لتبهره وتأكد له صحة الحمل ...وبرقت عيناه حين عرف تاريخ بدايته ... فقد حصل الحمل في تلك الليلة التي دعا فيها ربه أن يرزقه بطفل يثبت أسس علاقته مع زوجته ويزيد من ترابطها ... فاستجاب الله له .. وبشره بالبشرى ...

في اليوم الثاني لعودتها ... أراد جون يطيب خاطر زوجته لورا ... فاستعار سيارة ... وخرج في نزهة مع حبيبة قلبه ... وأم طفله المرتقب ... فكادت أن تتحول النزهة إلى فاجعة ..!!!

هكذا وبدون مقدمات ... حاولت لورا أن ترمي نفسها من السيارة ... وهي تقدم على قتل نفسها دون تردد ... وصارع جون بكل ما أوتي من قوة وضبط النفس ... حتى خرج من ذلك الموقف الرهيب ... الذي كاد أن يقود به إلى كارثة ... فقطع نزهته وعاد بزوجته إلى البيت ... ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد ... بل تفاقمت واتخذت مسلكا خطيرا ...

ففي تلك الليلة ... وبينما كان جون نائما بجوارها ... أحس بحركة مريبة تهزه .. فما إن استيقظ وأنار الغرفة .. حتى وجد لورا جالسة على طرف السرير ... وهي تضرب بطنها بكلتا يديها في محاولة لإجهاض جنينها ... اندهش جون لما رأته عيناه وتخبط في ذهوله ... فسارع لإيقاف تلك الجريمة النكراء ... وحاول أن يمسك يدي زوجته ... لكنها ضربته بقوة... وأزاحته بعنف من أمامها ... فأحس جون وكأن ضلوعه انخلعت من شدة قوتها ... وبرغم الألم نهض جون واستجمع قواه وما إن دنا منها حتى قذفته بإحدى التحف الحجرية ... فتفاداها جون لتصطدم بأحد أبواب خزانة الملابس وتكسرها إلى نصفين ...

أمام هذه القوة الغير طبيعية التي حلت بلورا ... وفي خضم ذلك الصراع ... انقطع التيار الكهربائي فجأة ... وانقضت لورا على جون من جديد... فأسقطته

ارضا ومزقت ثيابه ... وغرست اظافرها في صدره ... وهي تتمتم بكلمات مبهمة ... حتى أخذه الله بعنايته وشعر جون بثقل جسدها عليه ... فأزاحها عنه برفق ... وأنفاسه تلهث بشدة ...

فجأة عاد النور ليضيء أرجاء البيت والغرفة... فالضجة التي حدثت كانت كافية لتوقظ أسرة جون بأكملها ... وما إن وقعت عيناه على لورا حتى أصابه الذهول والروعة ... لقد كانت مستلقية على سريرها وابتسامة ماكرة تعلو شفتيها ... وكأن شيئا لم يحدث ...

لم يذق جون طعم النوم في ليلته العصيبة تلك ... وما إن طل الصباح حتى غير ملابسه ... وأقل زوجته لورا إلى عملها ... وذهب إلى ذلك المكان الخالي أمام البحر الذي كان يرتاده في السابق ... فجلس غارقا في غيبوبة فكرية من التساؤلات ..؟؟ إنه يشعر بالندامة .. وبالخجل من ضعفه ومن معاناته التي يعيشها ...فكيف يقنع نفسه والآخرين من حوله بأنه ضائع بصورة حاسمة ومظلمة ومخيفة في عالم لن يتصوره احد ولن يصدقه بشر ...؟؟

لقد كان مستعدا طوال حياته أن يضحي بوجوده لأجل فكرة نبيلة .. من أجل أمل كبير لكن الندامة المحرقة تحرق قلبه ... وتطرد نومه ... وتحيل حياته إلى جحيم وبرغم انه اكتشف أنه تزوج لورا ليس بدافع الحب أو العشق وإنما بسبب ذلك الطلسم الذي أطعمته إياه والذي سقط عنه بمجرد حدوث الزواج ... إلا انه رضخ للأمر واستسلم أمام هذا السخف حتى يجد بعض الراحة والسعادة ... لكن شاءت الأقدار أن يعيش تلك الحياة القاسية بهتانا وعذابا ..

إن الموقف ميئوس منه ... والطريق مسدودة ... ومثل هذه الأوضاع تدفع المرء إلى الجنون ... وأمام هذه التساؤلات كان يحتاج لمن يدعمه ويشد أزره في محنته .. فتذكر ذلك الشيخ الجليل ... وذهب إليه حتى لا تنهشه المتاهات ... وما إن شاهده جون حتى انفجرت بالدموع عيناه ... وراح يشكو له غربته وضيقه .. وحدثه عن تلك الواقعة الأخيرة :

– أي قدر ظالم رهيب رمى بي إلى هذه الحال ... أيها الشيخ الجليل ...؟؟

– إن هذا القدر يابني رمى بك إلى ذلك العالم الغامض ...حتى يتغذى إيمانك وتقوى عقيدتك.. وفضله عليك عظيما يوازي فضل الراحة والعافية ...فكان لابد للتجربة أن تزودك بنظرة عجيبة تفحص بها جحيم المشاعر وممالك الروح التي ما كان لك أن تكتشفها لولم يمسسك سوء

فما أصابك لم يكن ليخطئك لقوله تعالى : "قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا"

– إنني راضٍ بمصيبتي .. وراضٍ بقدري ... لكن الحرب توسعت ... وتحول البشر إلى وحوش .. يدمرون أسرتي بدافع الحسد ... ويقتلون سعادتي من اجل المتعة والتباهي بالقدرة .... فذلك اللعين الذي صارعته بالأمس .. حاول أن يقتلني ويقتل طفلي في رحم أمه ... أليست هذه جريمة نكراء ...؟؟ وأي عدالة تعترف بوجود الشيطان... وتضع حدا لهذا البلاء ...؟؟

– هنالك عدالة السماء ... ومعنى هذا يابني أن هذه الفترة من المظالم والفوضى التي تسود حياتك وتعكر سعادتك هي فترة لها حكمتها وأسبابها ... وأنها عين العدالة وامتحان لما يلي من حياة مستمرة أبدا ....فالدنيا يابني ملهاة قبل أن تكون مأساة .. والشعور بالحق يملؤنا تماما وإن كنا نعجز عن الوصول إليه ... إننا نشعر به ملء القلب وإن كنا لا نراه حولنا ... وهذا الشعور الطاغي هو شهادة بوجود الخالق الرحمن ... فلحظة التأمل الصافي تقودنا إليه ... وبصائرنا تهتدي إليه ... والحق أحد أسمائه الحسنى ... وبهذا اليقين الديني ترد اعتبارك وكرامتك ... وتنزل السكينة على قلبك ... وتشعر بنفسك أقوى من الموت ومن الظلم نفسه ... فالتقوى هي السلاح الأقوى ... والإيمان حصن لا سبيل لاختراقه ... ولو تمعنت فيما وقع لك ليلة الأمس ... لاستيقظت من غفلتك ... فذلك عقاب باطنه رحمة وظاهره عذاب ... ولم يكن يقوى ذلك الجني أمام قدرة الخالق في أن يقتلك أوأن يقتل طفلا في رحم أمه ...

– وبماذا تنصحني أيها الشيخ الجليل ...؟؟

– إن ذلك الملعون الذي هاجمك بالأمس حسب ما وصفته ... لم يكن سوى ملك من ملوك الجان الكفرة ... وأمثاله يستغيث بهم السحرة ... إنه يملك من القوة والدهاء ما لا تملكه جنود الجن ... وله قوة عجيبة ومؤذية ... تختلف عن قوة جنوده ...

فالجني العادي يحضر على جسد المريض ويسبب له المـــا في ظهره او صداعا في رأســـه و يفقده وعيه ..وقد يدوم هذا الحضور لأيام عديدة ... أما ملك الجن فهو لا يحضر إلى جسد المريض حتى تعجز جنوده في تنفيذ مهامها ... فيتلبس بالمسحور كليا ويتكلم على لسانه ويمشي في جسده لمسافة طويلة وربما تشاجر وربما هرب ،كل ذلك وهو حاضراً على جسد المريض الذي لا يعلم شيئاً ، حتى أن من الشياطين من يحضر حضورا كليا ويقود السيارة ويسافر بالمريض وهو لا يعلم ، وقد يكون المريض في مكان فيحضر عليه الشيطان حضورا كليا ويغيبه عن الوعي ثم يذهب به إلى مكان آخر وهذا ماكان يحدث لزوجتك حين تهرب من عملها إلى بيت والدتها ، أو يسترجع المريض وعيه وإذا هو في أحرج المواقف المضحكة المبكية ، وتتوقف مدة هذا النوع من الحضور على ضعف الإنسان الإيماني والبدني وعلى مدى قوة وتمكن الشيطان من الإنسان ، وهذا الحضور يتعب الشيطان كثيراً خصوصا عندما يكون الإنسان ثقيل الوزن ...

عليك يابني أن تحذر مكره... ولا يخيفك وجوده ... فحضوره يفسر ضعف جنوده في التفريق بينك وبين زوجتك ... ويدل على قوتك وعزيمتك في طردهم وقتلهم ... فهذا الملك الشيطاني يتحرك وفق قاعدة السحر وتضاريسها ... ولا تنسى قول الله عز وجل: "إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى "... وقوله أيضا : " فوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ "

بعزيمة الإيمان ... وبسلاح العقيدة والقرآن .. عاد جون إلى بيته في مواجهة أخرى مع الشيطان ... لقد عزم أن يقاتل بكل جدارة ... ويكشف الستارة .. عن عالم الغدر والقذارة ... وما إن عادت لورا وتفرست ملامحه الجامدة ... وأدركت يقينه الإيماني ... حتى تغيرت صفاتها ... وتبدلت حالتها ...وبدا الشرر يقذف من عيونها :

– أرجوك طلقني يا جون ...!! فلست ... أقوى على متابعة حياتي معك ...!!

رمقها جون بنظرة فاحصة ... وأدرك على الفور أن ذلك الشيطان بدأ يتحدث على لسانها .. فأجابها بعد أن اتخذ موقفا دفاعيا لنفسه ... كي لا تفاجئه كعادتها :

– اطلب شيئا اخر ايها اللعين ..!! فانت مكشوف حتى ولو اتخذت جسد زوجتي ستارا لـــــك ..

برقت عيناها في شدة ... واتسمت على شفتيها ابتسامة ماكرة ... فتكلم الشيطان على لسانها :

– لم أتصورك بهذه البراعة يا جون ... لقد كشفت أمري في ثوان ... وصرت بارعا في كشف حضور الجن على الأجساد ... فكلما اقتربت منك ازداد إعجابي بك أيها الوغد !!

– ذلك من فضل الرحمن ... الخالق القادر على مكر الإنس والجان ...!!

– أرجو أن تكون قد أدركت قوتي بالأمس ... فأنا لا ترهقني رقية ... أو يحرقني قرآن ...

– ماذا تريد أيها الملعون ...؟؟؟ ومن الذي سلطك على حياتي ..؟؟؟

– لا تنعتني بالملعون أيها الوغد ..!! فأنا سيد من أسياد الجان ... أدعى الملك جفريس ... ولدي مملكة من الجن الأقوياء الأوفياء ... يطيعون الأمر ... ولا يهابون البشر ... وإن لم تطلق زوجتك ... وعصيت أمري ... فسأعاقبك أشد عقاب ...وأقتل طفلتك في أحشائها .. وأجعلك تعيش أسوء عذاب ...

– إنك تضحكني ياجفريس ..!! فهل أولائك الثماني عشر جني الذين أحرقتهم مشيئة الله المنان هم أحد جنودك الأقوياء كما تزعم ...

أمام هذه العبارة الساخرة من جون ... ضرب الشيطان جفريس بطن لورا بقوة في محاولة لإجهاض جنينها ... فانقض جون عليه في استماتة وهو يتلو آيات الرقية والعذاب ... وحاول جفريس أن يفلت من قبضة جون الحديدية ... لكنه لم يقوى على الإفلات ... ولم تكن له من حيلة سوى أن يؤذي لورا التي يسيطر على جسدها ... فجعلها تعض على لسانها بقوة حتى صار لونه قاتم السواد ... لكن جون كان يعي نوايا ذلك الشيطان ... فطلب من والدته التي أصابها الذهول .. وامتلكتها الرعب لما تراه عيناها ... أن تمنحه كأسا من الماء ... وشرع يقرأ فيه آيات الرقية حتى فرغ منها ... ثم صب الماء على وجه لورا هو يقول في صرامة :

– فلتحرق يا ملك الشياطين ..!!! فلتحرق بمياه الرقية ياجفريس اللعين ...!!

تأوه جفريس ...!! وأطلق صرخة الم مدوية ... وانهار بين يدي جون وهو يصرخ قائلا :

– لقد أحرقت وجهي أيها الوغد ... وأهنتني أمام جنود مملكتي ... سأقتلك ياجون سأقتلك !!

وانقض جفريس مرة أخرى على جون ... وهو يستل سكينا صغيرا.. .كانت قد أخفته لورا بإيعاز من الشيطان تحت سريرها خلال عودتها من بيت والدتها ... لكن جون سيطر على الوضع ...وأفلت السكين من يد لورا أو بالأحرى من يد الشيطان جفريس وخوفا على طفله الذي في أحشائها ... أحكم جون قبضته على يديها ... وشرع يتلو بصوت عال آيات الحرق والعذاب ... فبدأ ينهار جفريس في صمت شيئا فشيئا ... وهو يخفي ألامه حتى لا يلحظها جون لكنه لم يقوى أمام سلاح القرآن ...ولم يتماسك أمام قدرة الرحمن ... فصرخ قائلا :

– توقف عن القراءة أيها الوغد ..!! فأنا انتحاري ... وسأقتل زوجتك وطفلتك إن قتلتني ...!! لقد أحرقت نصف وجهي ... وقطعت رجلي ... وحطمت أضلعي ... ولولا ذلك الملك الحافظ الذي يقف وراءك ويحارب معك ... لكانوا جنودي قد مزقوا جسدك وقطعوه إربا ...

لم يكترث جون لتهديداته ... وواصل القراءة بعزم وإرادة ... حتى ارتعدت أطراف لورا في شدة ... وأدرك أن عدوه جفريس يحاول الهرب والفرار من جسدها ... فأحكم قبضته عليه ... حتى لا يجعله ينفذ بجلده ... لكن جنوده سحبوه بعد أن مني بأبشع هزيمة ... وبعد أن حطمته مشيئة الرحمن على يدي جون أشد تحطيما وأهانته أمام جنود مملكته الضعيفة هو يقول :

– سأعود إليك أيها الوغد ...!! وستذوق مني أشد عذاب ..!! فجفريس لن يقهر أبدا أبـــــدا ..!!

بعد ذلك الصراع استيقظت لورا من غفوتها ... ورأت تجمهر عائلة جون حوله ... فقد كان هذا الأخير جسده المنهك ... وآثار الخدوش على وجهه

وحول رقبته ... تاكد لها بانه كان يخوض من اجلها ومن اجل ذلك الطفل البريء في أحشائها ... أقوى صراع شهده في حياته كلها ... وشعرت بأنها في حاجة لأن ترمي نفسها بين أحضانه .... فحاولت أن تضمه إلى صدرها ... لكنها هذه المرة عجزت تماما في التعبير عن رغبتها... لقد كانت قوة ذلك السحر أقوى من شعورها ... فاستلقت على سريرها ... وهي تجهش في بكاء طويل ..

مرت اليومين التاليتين في هدوء ... ولم يسجل أي ظهور لذلك الشيطان جفريس ... وتنفس جون الصعداء بعدما تأكد أن الجنين حالته سليمة ... لكنه كان يعيش ساعات من القلق القاتل ... فزوجته لورا لم تحدثه طوال يومين ... وإنما منزوية في غرفة نومها ... دون أكل أو شرب ... وعجز جون أن يخرجها من عزلتها ... فقد كانت ترمقه بنظرات صامتة ... وتغط في نوم عميق كلما حاول محادثها ...

لم يكن تفسير ذل ك الهدوء بشرى بشفاء حالتها ... أو دليلا على رجوعها لطبيعتها ... وإنما كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة ... لقد سلم جون من شياطين الجن هذه المرة ... لكن الصراع لم ينتهي ... والحرب مازالت في أوجها ... لأن أحداثا أخرى كانت تدور في الخفاء ... فشياطين الإنس تخطط في براعة ... لتشن هجومها المباغت على جون ... لتدمر حياته ... وتهز كيانه ... وينتقم جفريس من غريمه الذي هزمه ...

ولم يكن شيطان الإنس هنا ... سوى تلك العجوز والدة لورا ... التي دبرت مكيدتها ... و استدرجت ابنتها إلى بيتها بحجة الزيارة في رابع يوم عودتها إلى زوجها ... لتكشف لها بكل وقاحة عن خطة جديدة ...ورشحتها لتنفذ تفاصيلها حرفا ..حرفا ... حتى توقع زوجها جون بأيديها في شراك الشر ...

استسلمت لورا ببساطة ... واقتنعت بكل ما علمته لها والدتها ... وعادت لبيتها في المساء ... فاستغلت غياب جون عن البيت ... واتصلت بشقيقها لكي يأتي إليها ... حتى تبدأ في تنفيذ خطة والدتها ... وما إن حضر شقيقها ... حتى سلمته

حقيبة مجوهراتها وملابسها وحاجياتها ... ورحل في عجالة حتى لا ياتي جون ويفضح أمرهما ...

اكتشف جون بعد عودته ... اختفاء حاجيات لورا وملابسها ... فتوجه إليها متسائلا :

– أين حاجياتك يا حبيبتي لورا ... لقد دهشت لاختفاء ملابسك من ...!!!

قاطعته بصوت غاضب وهي تصرخ في وجهه :

– وما شانك أنت بحاجياتي أيها الحقير ...!! وما شأنك بي أيضا ...!! هل تعلم انك أحقر وأبغض رجل صادفته في حياتي ..!! إنك إنسان تافه جدا ...!!

تعجب جون أمام ردها ... وتفاجئ من شتائمها الوقحة ... وماهي إلا ثوان حتى ضربت بطنها بكلتا يديها ... وهي تصرخ مستنجدة :

– أنقذوني ... !! إنه يضربني ... آه ..آه .

انتفض جون وامسك يدها حتى لا تؤذي نفسها وجنينها ... لكنها باغتته هذه المرة ... وعضّته في يده اليسرى ... وأطبقت بأسنانها على ساعده ... حتى مزقت جلده ... وسالت دماءه على شفتيها ... وبرغم الألم الفظيع ... لم يشعر جون بأي ألم ... لقد كان شعوره ينصب في تحليل ما يجري ... لم تكن عليها علامات ذلك الجني ... أو في غير طبيعتها ... وإنما كانت في كامل رشدها وهي تعي ما تفعل ... لكن تلك القوة التي نهشت لحم يده لم تكن قوتها الطبيعية لقد اكتشف أن زوجته الحبيبة تدفعه إلى ضربها ... وتحاول إلصاق تهمة الإجهاض به ... فحتى وهي مازالت قاضمة بأنيابها على يده إلى أنها كانت تتمتم :

– أضربني إن استطعت أيها الوغد الحقير ...!! إنك رجل جبان ولا تقوى على فعل شيء ..!!

سحب جون يده من بين فكيها ... ودماءه تغطي أرضية الغرفة ... فسارع والداه اللذان امتلكتهما الصدمة لما شاهدوه ... وضمدوا جرحه ... دون أن ينطقوا أو ينبسوا بكلمة ...

بعد تلك الأجواء الشاحنة ... خيم هدوء نسبي ... واستسلمت لورا للنوم ...

بعد أن تركت جون يتألم في جراحه ... وهو يرمقها بنظرة يعلوها الشك والحذر

... عاجزا عن إيجاد تفسير مقنع لما جرى ... وظل في تساؤله حتى طلع عليه الفجر ... فسمع طرقات على باب بيته ... وما إن فتح الباب ... حتى فوجئ بشقيق لورا وهو يبكي :

– إن والدتي يا جون تحتضر على فراش الموت في المستشفى ..!! أريد لورا في الحال أرجوك ..!! فالموقف خطير ... واحتاج لأن اكلمها ..!!

رمقه جون بنظرة يعتمرها الشك والحذر ... وما إن دخل لمناداة لورا ... حتى فوجئ بها إلى جانبه ... وكأنها على موعد مسبق مع الحدث ... فصارت تبكي وتولول ... وهي ترتدي ثيابها لتذهب مع شقيقها ... وما إن صعدت إلى سيارته ... وابتعدوا عن ناظر جون ... حتى انفجر الاثنان في ضحكة شريرة ... لقد نجحت إحدى مراحل خطة والدتها ... بعدما فشلت الخطة الأولى في استدراجه لضربها ... لكنها تذكرت شيئا نسيت أن تأخذه معها من بيت زوجها ...

مع أول خيوط الصباح ... كانت تلك السيارة السوداء تقف على ناصية الطريق ... وبداخلها لورا وشقيقها ... لقد انتظروا حتى غادر جون بيته ... وهو متجه إلى المستشفى الذي زعم شقيق لورا أن والدته تحتضر فيه ... وما إن سنحت الفرصة حتى دخلت لورا لبيته ودفعت والدته في قوة ... وأسرعت إلى غرفة النوم لتأخذ ذلك الشيء الذي نسيته ... والذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى حقيبة جون الدبلوماسية ... التي تحوي أسراره الخاصة بعمله السابق ... وأمانات لبعض الأشخاص الذين ائتمنوه عليها ...

وصل جون إلى المستشفى ... والتقى بالمناوب الإداري الذي نفى له وجود حالة لإمراة عجوز تحتضر في أقسام العناية ... فغضب جون بعد هذا التأكيد ... وأكتشف في مرارة أنه أبتلع الطعم ... وما إن غادر المشفى ... حتى رن هاتفه .. ليأتيه صوت إحدى بنات جيرانه وهي تتمتم في مرارة :

– سيد جون ... لقد حضر شرطيان لبيتك يسألون عنك ...!! تصحبهما زوجتك لورا ووالدتها .أرجو أن تعود في الحال ... فوالدتك المسكينة ... وضعها الصحي مزري للغاية...!!!

عاد جون بسرعة البرق إلى بيته ... ووجد جيرانه وقد إلتموا حول والدته التي فقدت وعيها ... والتي كانت وحيدة في البيت بعدما عادت لورا وشقيقها ... الذين استغلوا خروجه فاقتحموا غرفة نومه ... وسرقت حقيبته الدبلوماسية ... لتترك شقيقها يسرق من أشياء جون وحاجياته الخاصة .... ماخفّ حجمه ... وغلا ثمنه ...

ذهب جون ليبلغ عن السرقة التي حصلت في عقر داره ... فتفاجئ وهو يرى لورا ووالدها يغادران مركز الشرطة ... وما إن دخل والتقى بضابط التحقيق حتى فاجأه قائلا :

– لقد وفرت علينا عناء جلبك سيد جون ... فلقد وقعت لتوي أمرا بإلقاء القبض عليك وإحالتك الى النيابة ..!!

– وبأي تهمة تلقي القبض علي أيها الضابط ؟؟... فانا هنا حتى أبلغ عن سرقة وقعت في بيتي ...

قاطعه الضابط وهو يتراجع في كرسيه وهو يشير إلى حقيبة جون فوق مكتبه :

– لم تحدث سرقة في الأصل سيد جون ... فكل ما في الأمر أن زوجتك لورا قد ردت لك حقيبتك التي تزعم أنها سرقتها منك ...!! فالمسكينة ... ولهول ما فعلته بها ... لملمت أغراضها لتنفذ بجلدها من غطرستك واستبدادك ... وما إن تفطنت لوجود حقيبتك بين أشيائها حتى سارعت المسكينة بجلبها لنا ... حتى لا تنتقم منها ...

– هراء ...!! فكل تلك الوقائع زائفة ....!! ولا وجود لصحتها أبدا ...

قاطعه الضابط بحركة من يده متابعا كلامه الركيك في هدوء واشمئزاز ... وهو يقرأ في محضر اتهامه ما يلي :

– لقد هاجمت ياسيد جون زوجتك المسكينة الحامل في شهرها الثاني ... وضربتها بشدة على بطنها في محاولة منك لإجهاض جنينها ... ولم تكتفي بذلك فقط بل قمت بخدش يدها بشفرة حلاقة ... وتسببت لها بجروح من الدرجة الثانية ... ووفقا للوثائق الطبية التي تأكد تعرض لورا المسكينة إلى إيذاء جسدي كاد أن يسبب لها صدمة نفسية ... وبعد أن تبين لنا خلال التحقيق أن والدتها المسكينة قد خاطرت بحياتها حتى تخرجها من جحيمك الوحشي ...

قاطعه جون بعبارة صارمة بعد ذلك الوصف الذي اطلقه :

– ألزم حدود القانون أيها الضابط ... حتى تتضح لك الوقائع كاملة ...!!

– وماذا ستقول يا جون ... لوعلمت أن زوجتك تدعي انتماءك إلى جهاز مخابرات معادية ؟ وليس هذا فقط بل حاولت قتل شقيقها في بيتك بمسدس تخفيه عن الأعين ... و أكممت فمها في مناسبات عديدة ...؟؟

– إن ما تدعيه زوجتي حول انتمائي ... لا يخولك لاستجوابي على هذا النحو ... فهناك جهات أعلى منك سلطة مخولة للنظر في هذه التهمة الباطلة ...

سكت الضابط لبرهة .. ثم سأله في لهجة استفزازية :

– أخبرني سيد جون ...!! هل كنت تجبر زوجتك على ممارسة البغاء مع أصدقاءك أو بعض معارفك ...؟؟؟

وتفجر الموقف ..!!! ونهض جون وهو يضرب بقبضته على سطح مكتب الضابط في غضب عارم ... حتى ارتعد هذا الأخير في مجلسه .. وجون يتابع في صرامة :

– لقد تجاوزت حدودك حقا أيها الوغد ...!! ما كان لفأر حقير مثلك أن يمثل العدالة أو أن يحضى بأن يكون ضابط تحقيق... !!عليك أن تحيل ملف قضيتي الآن إلى النيابة العامة ... وأعلمك أني سأكون هناك يصحبني أحد رجالك , حتى تتأكد أني لن أهرب من أمثالك ...!!

واختطف بعنف حقيبته بعد أن اكتشف أن لورا قد أخذت منها مستنداتها وهوياتها ... وسرقت منها مبلغا ماليا ... فسلمها لأحد أصدقائه الذين كانوا بانتظاره في الخارج ... وما إن خرج جون ..حتى تناول الضابط سماعة الهاتف ويطلب رقما في عجل وهو يقول :

– إنه في طريقه إليك سيدي ... لقد أنجزت الأمر كما طلبت مني ... وسارت الأمور على النحو الذي ترضاه ... أرجو أن لا تنسى ما وعدتني به ..!!

أجابه وكيل النيابة على الطرف الآخر من الهاتف :

– احسنت صنعا ايها الضابط ... فانا في انتظاره على احر من جمر...!! وحتى اوفي بما وعدتك به ... عليك أن تزورني عند المساء في مكاننا المعتاد ... لأمنحك مكافأتك المالية .

أغلق الضابط سماعة الهاتف بهدوء ... وهو يشكر سيده ويثني عليه ...وبسعادة غارمة ... تناول ملفا آخر وهو يطلب من مساعده أن ينادي على المتهم الثاني ...

ما إن دخل جون على وكيل النيابة ... حتى اشتد به الذعر ... وأصابه الذهول لما وقع عليه نظره ... لقد كانت زوجته لورا جالسة في مكتب وكيل النيابة على مقعد جلدي أسود وتحتسي في حقارة عصيرا باردا ... وما إن رأت جون ... حتى بدأت تتأوه في ألم ...وتجهش بالبكاء من دون دموع ...

رفض جون أن يجلس بعدما أمره وكيل النيابة بذلك ... فدنا منه هذا الأخير ... ودار حوله دورة كاملة ... وهو يتمعنه في برود ويتفحصه ... ثم نفث دخان سيجارته في وجه جون قائلا :

– لقد وقعت في الفخ أخيرا أيها الوغد ...!! أهكذا يعامل المرء زوجته الحامل ..؟؟؟

شعر جون بالغضب يسري في كل قطرة من دمه ... لكنه تماسك نفسه وأجاب بكل ثقـــة :

– أبمثل هذه الألفاظ الدنيئة ... تفتح أبواب التحقيق في القضايا ... يا ممثل العدالة ويا وكيل النيابة ..؟؟؟

صرخ وكيل النيابة في وجهه ... والغضب يكتنفه :

– إن تفوهت بحماقات أخرى ...اقسم أني سأضعك في السجن طيلة حياتك ..!!

– سيكون من الأفضل أن تواجهني بالتهم ... حتى توفر على نفسك عناء التحقيق ..!

إما أن تدينني ...أو تخلي سبيلي ... فلقد رأيت ما يكفي من الحماقات ...!!

– أخلي سبيلك ..!!؟؟ ربما يكون ذلك آخر شيء أفكر فيه ياجون ...! صحيح أني سأتعاطف معك بعض الشيء ... وأسقط عنك باقي التهم ...إلا أنني أجد ..!!

قاطعه جون وهو يقول :

– إن الاتهامات الزائفة التي تتحدث عنها ...تحتاج إلى شهود ... وإلى تقارير تاكد صحتها... وأنت لا تملك بين يديك سوى أقوال شفوية .... وبهذا تسقط وتدحض كل التهم .

– حسنا ... بما انك ترى نفسك أستاذ في القانون ... يسعدني أن أقول لك " أنك موقوف بتهمة الاعتداء على زوجتك " أيها الوغد ....!!

توجهت لورا نحو مكتب وكيل النيابة بعد أن طلب منها هذا الأخير التوقيع على محضر أقوالها ... وتابعها جون بنظراته ... وهو يراها تلتقط قلما بكل برود ... وتوقع بيديها على المحضر الزائف الذي سيدخله إلى عالم آخر من الظلم والعدوان ... وما إن وقعت لورا على أقوالها ... حتى رمقه وكيل النيابة بنظرة تحمل السخرية والاستفزاز قائلا :

– هل لديك أقوال أخرى أيها المتعجرف ...؟؟؟ لقد قفل المحضر ..!!

أجابه جون وهو يلتفت صوب زوجته لورا ...التي شعرت بنظرته وكأنها سهم يخترق كيانها.

– نعم يا ممثل العدالة ...!! فأمام هذه الخيانة المحبكة بعناية لا يسعني سوى أن أقول " بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ "

أمام هذه الآية الكريمة ... أحست لورا بقلق شديد وشعرت بقلبها يخفق بقوة وهي ترى الحارس يضع الأصفاد الحديدية حول يدي جون ... ويقوده نحو قبو النيابة تمهيدا لترحيله إلى السجن ...

وسرعان ما رمت قلقها ... ونهضت بتثاقل واضح ... وهي تصافح وكيل النيابة ... ثم التقطت من حقيبتها دفتر صكوكها ... ووقعت على صك منحته له مع سيل من عبارات الشكر والثناء ... وما إن وقعت عينا ممثل العدالة على الصك ...حتى برقت عيناه وهو يقول:

– أعدك يا سيدتي الجميلة لورا ... أني سأخفي ملف القضية على عيون القضاة ... حتى يبقى ذلك الحقير جون قابعا في سجنه لسنوات ... وبذلك تحصلين على الطلاق.

– سنبقى على اتصال يا سيدي ... واعلم أني لن أنسى معروفك أبدا ....

– لقد نسيت ان اخبرك شيئا ...!! فقد وجدت ملف شقيقك المطلوب للعدالة منذ شهور وتيقني أنه قد صار حرا طليقا .... منذ هذه اللحظة ... بعدما شطبت عنه كل التهم القديمة ...

– أوه سيدي ....!! لقد أجهدتك كثيرا ...!! إنك تفعل الكثير لأجلنا ..!!

– لا عليك سيدتي الجميلة ... فأنا في الخدمة في أي وقت تشائين ومن اجل عينيك الفاتنتين !!

ابتسمت لورا بعد عبارته التي تحمل الإعجاب .... وغادرت مكتبه وهي ترمق في مقت شديد والد جون ووالدته اللذان كانت الدموع تتفجر من عيونهما ... تأسفا على سجن ابنهما ظلما ... والتقطت هاتفها ... لتزف لوالدتها العجوز ... النبأ السار الذي تنتظره في شوق ...

أما جون فقد كان أمام قبو النيابة ... يسلم وثائق هويته وحاجيته لزوج شقيقته ... وهو يراجع مشهد الخيانة ... ثم دخل إلى ذلك القبو المظلم ... في انتظار ساعة ترحيله إلى أهوال تجربة أخرى يجهل معالمها ... إلى عالم لم يتسنى لنا أن نطلق عليه اسما سوى ... " مقبـــــرة الأحيـــــاء " ..

(15)

*مقبرة الأحيـــــاء..

لم يكن من الممكن إغفال تجربة السجن من التاريخ ... فقد خلفت هذه التجربة الرئيسية أثرا كبيرا في حياة جون ومسيرة أحداته على الصعيد النفسي ... لما لها من فضل اكتملت بها مكانته العالية في نفوسنا ... وكان منها هذا التصوير الرائع لأعماق القلب البشري وتكامل اللوحات لمختلف البيئات والنماذج الإنسانية ...

دخل جون إلى السجن ليلتقي هناك بأعظم تجربة ردته إلى عالم الواقعية الاجتماعية .. فقد كان السجن بمثابة مدرسة رغم ما تميزت به دروسها من قسوة .. ورغم هذه القسوة وتلك المتاعب التي تعرض لها في السابق ... لم يفقد الأمل ولا الشجاعة وضل دائما يتحدى الظروف القاسية بعزيمة لا تعرف الاستسلام أو الانهزام وكتب لصديقته (أنجيلا مور) :

((لقد تقرر كل شيء في لحظة .. يا صديقتي ... وهاأنذا بين القضبان ...!! لكنني لم أفقد شجاعتي .. فالحياة في كل مكان ... وسأضل رجلا بين الرجال إلى آخر أيام حياتي .. وعلى المرء ألا ينهار ... فنحن نسقط لكي ننهض ... وننسحب في المعارك لنحرز نصرا أروع ... مثلما ننام لكي نصحو أكثر قوة ....وهاذا هو المعنى الحقيقي للحياة ....))

خلال أيامه الأولى كان في سجنه عدد من الأشياء التي لم تستلفت انتباهه .. لأنه ماكان يريد ملاحظتها ... ومشهد زوجته الخائنة يتراءى له كل حين ... لكن الغربة المميتة جعلت تلك الأشياء تستحوذ على انتباهه .. فراح مرغما يلاحظ ما كان يشك في وجوده من قبل .. لقد اكتشف تلك الهوة السخيفة بينه وبين السجناء .. وهم يرمونه بنظرات الحذر والشراسة ... وينظرون إليه على انه فرد من طبقة غير طبقتهم ...

واكتشف جون أن النخبة المثقفة كانت تعيش دائما بعيدة عن الشعب ... مفصولة عنه بجدار شامخ سميك ... وبإرادته القوية وشهامته وطيبته ... أسقط ذلك الجدار ... ودحض ذلك النفور الودي ... فمالت إليه قلوب السجناء حين عرفوه .... ودقت له قلوبهم حين اقتربوا منه وسمعوه .. فأحبهم مثلما أحبوه ... وشاطرهم رأيهم ومشاكلهم وهو يستمع لمعاناتهم ... ويداوي بالحكمة جراحهم ... وكان يحثهم على

ممارسة دينهم ... فصور لهم الدين في احسن صوره ... واظهر لهم الشيطان في أسوء شكل حتى تأججت في نفوسهم روح العقيدة ...فساروا على نهجه ... وجعلوا منه قدوتهم ومسير شؤونهم ...

كان السجن عبارة عن أقسام ... وفي كل قسم صنف من النزلاء ...

وبتوصية من وكيل النيابة الذي أمر بسجن جون ... وضع هذا الأخير في القسم الأول وهو أشد الأقسام هولا وخرابا ... فنزلاءه صنف محكومون بجرائم قتل وسرقة ... استسلموا ليأسهم ... ونفذت في حقهم أحكاما طويلة الأمد ... وصارت تلك البقعة بالنسبة لهم مقبرة لا تختلف عن أي مقبرة أخرى سوى أنهم أحياء فقط ...فالجدران قذرة مدنسة ... ودخان السجائر والمخدرات يعبق المكان بسحابة خانقة ... وأسراب الفئران والصراصير في كل مكان ... ولم يخصص للمائة وعشرون سجين سوى مرحاضين فقط للاستعمال ...زيادة على ذلك وجبات الطعام التي تتسم بالقلة والقذارة وغياب الرعاية الصحية ...

باختصار ... كان السجن بؤرة للفساد والمرض ... شعارها الكفاح من الأجل البقاء وتحت هذا الألم الصامت ... كان جون يرى بعض النزلاء ... يروحون ويجيئون في تلك الأمتار البسيطة بمنظرهم الكئيب ويتمتمون بأصوات خفيضة .. مطرقين رؤوسهم نحو الأرض مستسلمين لذلك الانحطاط النفسي ... تطفح العذاب والمرارة على وجوههم ....

لم يكن السجن مؤسسة تأهيل وإصلاح ... فما اكتشفه جون يشير إلى أنها مؤسسة تدمير وتذليل ... فحتى المسجونين لم يسلموا من قسوة الحراس ومعاملة الشرطة السيئة لهم ... فقد كانوا يجمعون المحكومين عند كل صباح ... ويجلدونهم بالسياط ويعمدون إلى تشغيلهم في أمورهم الخاصة ... فينظفون مكاتبهم وسيارتهم ... ويسرقون حاجياتهم في كل زيارة ...

لم يستطع جون السكوت عن هذه الآلام ... فالشجاعة والإيمان مزروعان في نفسيته .. وبإرادته الصلبة .... وتفكيره السامي دافع عن حقوق تلك الأقلية المضطهدة ... بعدما قاسمها ألامها وعناءها ... فكتب شكوى لمدير السجن ... يحثه فيها

على تسوية هذه الاوضاع المزرية .... ووجدت تلك الشكوى اذانا صاغية ... فتحسنت الأوضاع قليلا ... وسمح للسجناء بالصلاة في مسجد السجن والخروج إلى ساحته في كل ظهيرة ... حتى ينعموا بدفء الشمس ... ويستنشقوا الهواء النقي ...

وشاءت الأقدار تحت هذا الضغط الرهيب أن يمرض جون خلال فترة سجنه واشتدت به الحمى ... ولم يجد في محنته المرضية سوى أولائك الأقلية البائسة التي أحبته والتي ترى فيه معلمها وقدوتها ... فسهروا على راحته ... وغسلوا ملابسه ... وأطعموه بأيديهم وهو طريح الفراش ...

صارع جون مرضه ... ونهض من فراشه ... فبانتظاره مهام عديدة ... فكان عند الصباح يجمع حوله النزلاء الأميين ليعلمهم القراءة والكتابة حتى يتسنى لهم قراءة الرسائل الواردة إليهم من أهاليهم والرد عليها ... وعند المساء يتخذ لنفسه ركنا ويقرأ ما تيسر من ذلك المصحف الصغير الذي شاء القدر أن يدخل معه إلى تلك الظلمة ... وكان وقت فراغه شاغرا أيضا .... فالظلم الذي دفع به إلى تلك البقعة ... زوده بنظرة أدبية .. تفحص المشاعر وممالك الروح ... فكان يكتب وهو يتخيل طفلته التي لم تولد بعد والتي أطلق عليها اسم (ميسون) :

*** حبيبتي ميسون ...**

*** ياغابات البنفسج ... ويا أشجار الزيزفون ...**

*** لأجلـــــك ... يخفق قلبي في صمت وسكون ...**

*** لأجلـــــك ... رسمتك نجمة على جدران السجون ...**

*** لأجلـــــك ... حاربت ألف شيطان ملعون ...**

*** هاأنذا حبيبتي أتحمل قسوة القدر المجنون ..**

*** فإن لم تكوني في حياتي .. فلن أكون ..**

وكان في الوقت نفسه يكتب عن معاناته ... وجاءت كتاباته لتشعرنا بذلك الالم الذي يعيشـــــــه :

*** سافرت في أرض البشر ..**

*** ورأيت أشياء غريبة ...**

*** فتفجرت الدموع بداخلي ...**

*** حين رأيت في جنازتي قاتلي ...**

*** وصارت غربتي شيئا قاسيا ...**

*** وأصبح منفاي صديقا غاليا ...**

وفي كتابة أخرى ... كتب جون عن ذلك المشهد المأساوي الذين كان لا يفارق مخيلته

*** لم أكن ادري أن الحب**

*** سيقودني ظلما إلى بلاد الكفر...**

*** حيث يصلب المؤمنون ...**

*** يا لحماقتي وسذاجتي ...**

*** كيف تهيننني اليوم خائنة ...**

*** وترمي بي في أقبية السجون ...**

*** كيف تظلمني امرأة ...**

*** باعت شرفها لتكسب رجال القانون ...**

إن هذه الكلمات المخنوقة ... والتي نلمس فيها مشاعر جون الأليمة ... التي يصورها لنا في كتاباته ... تجعلنا أن نتعايش مع جراحه النفسية والجسدية ... وأن نرى الغضب والألم والندم يتراكمون في نفسيته ... فالألم في كل ضلع ... وفي كل زاوية ... وفي كل حين ... لكن لسان حاله كان دوما يقول :

((حسبي أني غاضب والنار أولها غضب ..))

خارج مقبرة الاحياء ... وبعيدا عن اهوال السجن ... كانت زوجته لورا سعيدة ومقتنعة بما فعلت ... لقد أزاحت زوجها عن طريق والدتها العجوز ... التي ما إن دخل بطلنا إلى السجن ... حتى سعت لإجهاض ذلك الجنين الذي في أحشاء ابنتها ... محاولة بذلك أن تمحو أي أثر لجون من حياة لورا ...

لكن كان للقدر كلمته ... وكانت لله مشيئته ... فالجنين دخل شهره الثالث ... وإجهاضه قد يتسبب في موت لورا ... فتراجعت هذه الأخيرة عن الفكرة ... خوفا على حياتها ... لكن خطة والدتها لم تكتمل بعد ... فما زال هنالك الشق الأخير من مراحلها ...

هاهو جون قابع في سجنه ينتظر في صبر موعدا لمحاكمته ... ويقين لورا بحكم المحكمة في إدانته لا يشق له غبار بعدما وعدها وكيل النيابة بذلك ... فقد اختفى ملف قضيته ... وكان الوقت كافيا لها ... لتنفذ ذلك الشق الأخير من مرحلة خطتها الشريرة ... فقامت برفع دعوى للطلاق في قضية شرعية ... تلزم فيها زوجها جون بتطليقها ... وإرغامه بدفع مستحقات مؤخر صداقها ... مع تعويضات مالية ضخمة ... لما تعرضت له من أذى مزعوم .

فلو أدين جون في قضية الاعتداء المزعوم ... ستحقق لورا مآربها ... وتفوز بالطلاق الذي طالما سعت وراءه قوى الإنس والجن على السواء ... وتستحق والدتها العجوز لقب الإمبراطورة التي خاضت حربها الغادرة حتى النصر ...

بدافع البغض والطمع والكراهية ... فعلت لورا ما فعلت في زوجها ... دون حساب لطفلة بريئة في أحشائها ... لكن رحمة المنان ... الخالق الرحمن ... غيرت مقادير الأمور . وقلبت الرؤيا ... فقد وجد القضاة ملف قضية جون بعد اختفاءه ... وأخيرا جاء الوعد الحق .... وحكمت المحكمة ...

(16)

*نهـــاية بطـــل..

عند بزوغ فجر يوم من ايام الخريف ... وفي ذلك المبنى الجميل ... الذي يطل على سهل أخضر في الريف الهادئ ... فتحت أبواب الشرفة الكائنة في طابقه الثاني ... وخرج منها رجل في ريعان شبابه ... بمظهره الوقور ... وبوسامته الخفية ... اعتادت العصافير في كل يوم أن تأتي لشرفته ... فيطعمها من يديه ... ويلقي عليها في حنان تحية الصباح ...

كان من عادة هذا الرجل ... أن يتخذ من تلك اللحظة في كل يوم ... نقطة بدأ لخياله وتفكيره ... وهو يرقب ضوء الشمس يغمر جدران غرفته الأنيقة بشعاعه الضوئي البديع ... فيطلق لفكره العنان ... ويسرح خياله في سيل من الذكريات ....

كان يتذكر وقائع ذلك اليوم الذي خرج فيه من السجن ... بعدما اجتمعت هيئة المحلفين في قضيته ... ورأوا أنه بريء من التهمة التي لفقتها له زوجته ... والتي بسببها بقي موقوفا في سجنه ... وتذكر كذلك زملاءه الذين بكوا في ألم وشدة حين فارقهم ...والذين افتخروا بوجوده ... وأحبوه ... واقتدوا به ... في تلك المدة التي قضاها معهم ... إنه يذكر تفاصيل ذلك اليوم وهو يعود لبيته ... ليجد والدته ترتقب في شوق حضوره ... فتعانقه بدموع من الأسى والفرح ... وتعود لشفتيها تلك البسمة التي حرمت منها مند دخوله إلى غياهب السجن وجلس على كرسيه... وهو يرمي بالطعام للعصافير التي تجمعت حوله في الشرفة.. فالتفت إلى ذلك المنظر الجميل ... وراح يتأمل في اللانهاية من المرتفعات والتلال الخضراء تغمرها الشمس بنورها الذهبي ... وبدا له وكأن الزمن قد توقف أمام صنعة الله المبدعة ... وتسلل فكره من جديد إلى الخيال والتأمل ... فلم يكن يحلم بشيء ... لكن حزنا عميقا يكتسحه ويرهقه ويروعه ...وهو يفكر في ذلك الزمن الضائع الذي تلاشى في لحظة

وبدا له شريط ذكريات حياته بسرعة ... فتذكر طفولته ... وغربته ...

وشريكه رانوف وخطيبته كارلا وشقيقها إيفان ... وتذكر تلك الأحداث المروعة التي مر بها ... وصراعه مع جفريس وجنوده ... وتلك الأيام التي قضاها خلف القضبان حتى حكم بالبراءة ...وراح يفكر في تلك الأفعى الخائنة زوجته لورا ... فتحسس يده

وهو ينظر إلى اثار انيابها التي لم يقوى الزمن على محوها ... لورا التي ماانفكت تألمه وتجرح قلبه ...

ثم ماهي كل تلك الآلام الماضية ...؟؟ فما وقع له يمكن أن يقع لرجل سواه لكن الذي يشغله ... عجزه عن إيجاد حقيقة لتلك الآلام التي مرت به .. فالحياة كلها بدت له قائمة على كتلة من الزيف والخداع ...!! واختلافه مع البيئة ينضج في أعماق وجدانه ... ولم يجد من سبيل لتفاديها ... سوى تلك العزلة التي أحاط نفسه بها في ذلك الريف الهادئ ...

وفجأة ... تركز فكره في نقطة ما ... ونهض في هدوء ... وامتدت يده تحت وسادته وأخذ في عناية صورة طفلته الحبيبة ميسون التي لم يتجاوز عمرها الأربعة أشهر ... وانحنى ليطبع على خذها قبلة الصباح .. فانهمرت دموعه في شوق إليها ... وهو يرى عينيها اللتان تفيضان بالبراءة ... وخيل إليه وكأنها تسأله في لهفة : **أين أنت يا أبي ..؟؟؟**

واستلقى على سريره ... واختلطت دموعه بسعاله الشديد ... فهو لم يقوى على الوقوف من جراء المرض الذي اكتسحه حين خرج من مقبرة الأحياء ... وراح يتذكر زوجته الخائنة التي حرمته من طفلته ... فبعد تلك الحرب القضائية التي شنتها لورا ضده حتى يطلقها ... وتفوز بالتعويضات المالية الضخمة التي رأت أنها ستلزمه بها ... اتخذت الأمور مسلكا آخر... وأسقطت المحكمة الشرعية ذلك الإدعاء الزائف وتدخل محاميه ليبرز براءة موكله من تلك الإدعاءات ... فأدركت لورا أن قضيتها خاسرة قبل انتهاءها ... وما إن علمت والدتها وباقي أسرتها بالأمر ... حتى نبذوها من بينهم ... وتغيرت معاملتهم ... فانتهجوا القسوة معها ... وماذا سيفعلون بها بعدما صارت عالة مقيتة عليهم هي وطفلتها بدون تلك التعويضات المالية التي شيدوا آمالهم عليها ....؟؟؟

وفي خضم تلك الأفكار ... سمع ذلك الرجل طرقات خفيفة على باب غرفته وما إن أذن للطارق بالدخول ...حتى انتصبت أمامه صديقته المخلصة (أنجيلا مور) التي لم ينكر وجودها في محنته ... ولم يغفل دورها في أزمته ... إنها تلك الفتاة

الرائعة التي عاشت معه احزانه والامه عن بعد ... والتي ما إن راته عيناها يمسك بصورة طفلته ... حتى امتلأتا بالدموع ... وسرت قشعريرة في جسدها ... وصار قلبها يخفق بقوة ...

بادرته أنجيلا بالحديث .. في محاولة منها لإخفاء دموعها :

– هل ترغب في تناول دواءك المعتاد ياعزيزي جون ..أم انك تنوي العناد كعادتك.؟؟

– وهل يقوى جون على عناد أروع أنثى تشرق عليه كالشمس في كل صباح ...؟؟

– إذن ... قم من فراشك ... وتناول دواءك في استسلام أيها الفارس العنيد ...!!

تناولت أنجيلا قرصا من علبة الدواء ... وناولته لجون في عناية ... وبدا لها هذه المرة أكثر هزالا ... وأكثر امتقاعا ... ووجهه يحمل آثار المرض ..وهي تقول :

– ألا تنوي أن تخترق هذه العزلة التي تفرضها حولك ...؟؟ فالكل يسألني عنك في اهتمام ...

– لست أقوى على شيء أنجيلا ..!! فهذه العزلة تشعرني بوجودي ... وتضمد جراحي ..!!

– بالمناسبة ... لقد اتصل بي محاميك ... وطلب مني أن أطلعك عن سير قضية الطلاق بينك وبين زوجتك ... وأكد لي أن الجلسة القادمة ستكون اللحظة الفاصلة في القضية ... فالمحكمة بعد اطلاعها على براءتك واقتناعها بزيف ادعاءات لورا ... سيصدر القضاة حكما بطلاقها دون تعويضات مالية ... مع إسقاط كافة الحقوق عليها والسماح لك برؤية طفلتك الصغيرة ميسون التي حرمت منها ...

– أشكرك يا أنجيلا فكم كنت تواقا لأقبل وجنتيها الدافئتين حتى تشعر بحنان الأبوة..!!

خلال حديثهما ... رن هاتف أنجيلا ... وما إن وقعت عيناها على الرقم المتصل حتى قالت لجون في خفوت :

– إنها زوجتك لورا على الخط ..!! لقد كانت تلح علي أن أقنعك بأن تفتح هاتفك ... ويبدو لي أن هناك شيئا مهما تود أن تحدثك فيه ... فهل تنوي مكالمتها ياجون أم أعتذر لها ...؟؟؟

التقط جون الهاتف من انجيلا ...واتجه في بطء نحو الشرفة ... واجاب عن الهاتف في هدوء :

– أرجو أن يكون لاتصالك هذا ... سببا مقنعا يالورا ...!!؟؟

ردت لورا في فرحة والدموع تكتنفها :

– أوه ... لقد اشتقت كثيرا لصوتك العذب يا عزيزي جون ... أين أنت ...؟؟ لقد بحثت عنك كثيرا دون جدوى ...وكلي أمل في أن أراك واستسمحك ...

أجابها جون في صرامة وهو يقطب حاجبيه :

– أرجو أن تدخلي في الموضوع مباشرة يالورا ...!!

بكت لورا بشدة ... وهي تستطرد في ندامة :

– أقسم لك ياجون أنني نادمة على مافعلت بحقك ... لقد أجبرتني والدتي وشقيقي على افتعال تلك الجروح في يدي حتى تدخل السجن ... ويجعلون من طلاقنا صفقة مادية مربحة ... دون أن يراعوا لطفلتنا البريئة ... أرجوك يا جون ... فالندم يعذبني ويمزقني في كل لحظة ... وأتوسل إليك أن تردني إلى حنانك وحبك المعهود ...!! وسأكون نعم الزوجة المخلصة ..!!

– مستحيل يالورا .. فقد فات الأوان على هذه المسرحية ... إنك لن تصلحي لأن تكونين زوجة مثالية في المستقبل ... ولست مستعدا لأن أجازف بتضحية أخرى مآلها الفشل ...!!

– أرجوك جون أتوسل إليك ... إنني ما زلت احبك ولن أنسى ما فعلته من أجلي ..!!

– وفري هذا الحب لطفلتك يالورا ... فهي أحق به في هذه اللحظات البائسة ..!!

صمت جون لبرهة .. وتذكر في لمح البصر ... أهوال تلك الأيام ... ولحظات السجن وذلك المشهد في مكتب وكيل النيابة والقيود حول معصميه ... وتلك الخيانة التي لا تغتفر ... فقال في صرامة جعلت من أنجيلا التي كانت تستمع لحديثه مع لورا ... ترتعد في مكانها ... وتسري الدهشة في وجهها :

– إنك لا تستحقين يالورا ... سوى شيء واحد طالما سعيت لأجله ... وهاأنذا أمنحه لك بكل فخر واعتزاز ...!! فالمؤمن لا يلدغ مرتين ..!!

قاطعته لورا وقد زادت من نواحها وبكاءها ... بعدما ادركت مغزى عبارته :

– أرجوك يا جون ..!! لا تقل شيئا ...!! أتوسل إليك ..!! لا تقلها ...!!

– أنت طالق يالورا .... طالق ... طالق ....!!

وأغلق الهاتف بهدوء ... وتغرغرت الدموع في عينيه ... وألقى بجسده على السرير دون أن يحرك ساكنا ... وشعرت أنجيلا بشيء يدفعها نحوه ... فأمسكت يده الهزيلة وبدت الدموع على خديها ... فامتدت يد جون برفق ... لتمسح دموعها ... وهو يرمقها بنظرة تعكس أضواء فجر جديد .. وفهمت مغزى نظراته ... فأشرقت عيناها لقد بدأ يحبها حبا عنيفا .. ولطالما أخفت هي الأخرى حبها له ...حتى دقت ساعة الاعترافات مدوية ...

لكن جون ظل صامتا ... فقد كان يبدو له في تلك اللحظة أن عبارة (احبك..) تلك الكلمة المقدسة التي طالما دفنها في صدره حتى يجد الأنثى التي تستحقها .. قد بدت لا فائدة منها ...!! وأنها تضحية مقضي عليها في هذا الزمن الضائع ولن يكون من وراءها طائل .. وانه لا يستطيع معاودة الحياة من جديد دون تلك الذكريات المؤلمة فما فائدة الحياة ..؟؟ وأي هدف سيدفعه إلى قولها لـــ(أنجيلا)...؟؟ فبرغم أنه كان دوما مستعدا للتضحية بنفسه من اجل إسعاد الآخرين ... إلا أن وجد نفسه يدفع ثمن تلك التضحيات غاليا ... فقد أضاع نفسه دون تبصر ولا أمل وبسخف وحماقة وراء حقيقة مؤلمة ...

وهو يحدث نفسه ... وعينيه مسمرتان على وجه أنجيلا الجميل ... شعر جون بضيف يتسلل في هدوء من شرفة غرفته ... وما إن لمحت عيناه ذلك الضيف يدنو منه ... حتى سعل بشدة وأحكم قبضته على يد أنجيلا ... وابتسم قائلا :

– لقد حانت لحظة الخلود الأبدي يا عزيزتي ...!! حقا ... علينا أن نؤمن بالله ونؤمن بالخير مثلما نؤمن بوجودنا و بأنفسنا ... إنني أرى الآن بوضوح وجه ضيف طالما تجاهل الناس ضيافته ... لكني سأحسن ضيافته .. وأكرمه ... حتى يأخذ أمانته ...

وتراخت قبضته على يدها ... دون أن تفارق ابتسامته شفتيه ... وجحظت عينا أنجيلا في ذعر ... وخفق قلبها بشدة ... وارتادتها صدمة قوية دفعتها

لان تصرخ باعلى صوتها ... حتى هز صراخها ارجاء البيت باكمله ...

نعم ..!! فقد حانت اللحظة الأخيرة ... وفارق جون ديمتري الحياة مبتسما وأدركت أنجيلا أن ذلك الضيف الذي كان يراه ... لم يكن سوى الموت بعينه ... الذي أخذ أمانته في شرف ... ورحل بكل هدوء ...

لقد حلت رحمة الأقدار ... في ساعة الحزن الأعظم ... لترحم ذلك الجسد الذي مزقته قوى الخير والشر ... وذاق مختلف أنواع التعذيب النفسي والجسدي ... والألم يطارده في قسوة مميتة ... وينتزع من حياته كل عذوبة وكل شعور بالسعادة والهناء ..

وبلغت صرختها مسامع أسرة جون في الطابق السفلي ... وهرعوا نحو غرفته ... وتجمعوا حول سريره بعدما هزهم النبأ الفاجع ... وخيم عليهم جو من الكآبة والبكاء .. وهم يتذكرون عبارته الشهيرة : **(إن المرء يولد مرة واحدة ... ويموت مرة واحدة ...والموت لا يأتي مرتين ..)** تلك العبارة التي انطلقت من قلب كبير عانق الحياة ... وأحب الناس ... وعاش مشاكلهم وقضاياهم ... وشاركهم آلامهم وأفراحهم ... وصورت لهم سلسلة حياته مهزلة البشرية وحقارة البيئة المحيطة بهم وهاهم يلقون النظرة الأخيرة على جثمانه ... نظرة الوداع الأخير ...

لقد تركنا هذا البطل ... في حيرة من أمرنا ... وقد عشنا مراحل حياته حتى آخر المطاف ... !! فإلى أين يا ترى أراد أن يقودنا هذا العملاق المستنير ..؟؟ بعدما جسد لنا نموذجا من الأفكار ... والتواضع ... والرحمة ... والقوة ... والإيمان ...؟؟

إنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره ... ومع ذلك خاض حروبا مهولة ... تعايشنا معها حتى اللحظة الأخيرة ... فهل انتصر بطلنا جون ...؟؟ أم نحن من انهزمنا ..؟؟

وطارت العصافير الصغيرة ... وحلقت في سماء ذلك اليوم ... وهي تغرد أغنية الوداع ... بعدما أيقنت أنها لن تجد من يطعمها في تلك الشرفة ....

لكن أنجيلا كان لها رأي آخر .. وبعد آخر ... إنها لم تكن حتى آخر لحظة تنتظر نهاية كالتي وقعت ... فقد حدثت المعجزة التي طالما انتظرتها ... لقد رأت طيف جون يغادر جسده الممتد أمامها ... ويتجه نحوها ... ويحملها بين يديه ... فيطبع قبلة على جبينها المشرق .. ويطير بها نحو عالم جديد تتسامى فيه حقيقة جديدة لبثت حتى تلك اللحظة مجهولة منه ...

هكذا تركنا جون في حيرة من أمرنا ....وتركنا فريسة لتساؤلات عديدة ... وكأنه يهمس في قلوبنا ويحثنا على أن نبحث بأنفسنا عن الحقيقة في الزمن الضائع ...

أما ذلك العالم المشرق ...الذي لا تستطعه قوى الشر وعوالمها الخفية ... والذي رحل إليه صحبة حبيبته أنجيلا ... فلن يتسنى لنا الحديث فيه ... وإذا استطعنا يوما أن نلحق بهم إلى ذلك الزمن .. فسيكون موضوع قصة جديدة ...

أما قصتنا ... فها هي ذي قد انتهـــت ...

. بحمد اللـــــه .

(النهايـــــة)

تاريخ بداية الكتاب : 20006/9/9

تاريخ النهاية والإصدار : 2006/10/15